حُـبٌّ عـاصِـفٌ

حُبٌّ عاصِفٌ

مجموعة قصصية

رضا تنافعت

حــبٌ عاصــفٌ

مجموعة قصصية

اسم الكاتب: رضا تنافعت
تدقيق لغوي: فريق المكتبة العربية
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى
رقم الإيداع: ١٤٥٧٨ / ٢٠١٨

طبعت بمطبعة الشروق

حقوق التوزيع

Facebook.com/arabiclibrary2017

إهداء...

إلى روح الذي لم يُفارقني وإن رحل... أبي أكرمه الله بجنته ومَنّ عليه بمغفرته.

إلى روحي ومهجة قلبي، أمي مدَّ اللهُ في عمرها وجمّلها بالعافية.

إلى إخوتي جميعا... بكم تستنير دروب الحياة.

إلى الذين يمدون أبصارهم إلى السماء حالمين، يبحثون لأنفسهم عن موطن وسط النجوم، ولا تهمهم هذه الأرض وفُتاتها...

إليكم جميعا أهدي هذه الكلمات المشكولة.. المنحوتة!

الحبُّ... موتٌ صغير!!

ابن عربي

اختفاءٌ أخْضَر..!

"المساكين" أو "الدوار التحتاني"، على اختلاف في التسمية، دوارٌ عجيب، مقذوف خارج التاريخ لم يدخل متن الكتاب ولا سجل الحياة. دوار تحيط بجنباته أراض فلاحية شاسعة، تخضرُّربيعا وتصفرُّصيفا، وبين هذين اللونين تترهل أبدان المزارعين وتشيخ، ويسقطون موتى في وهدة التاريخ المنسي. وحدها الطبيعة هناك تضحك بجمالها في وجوه أصحابها البائسين، أودية تسيلُ هنا وتسيرُ هناك، وخُضرة تنسي الرائي همَّه وتفتح ما انغلق من نفسه وتعقد من روحه. يعيش الناس في هذا المكان منسيين لا أحد يعترف بهم إلا هم، يعيشون وحدتهم في صمت صارخ وهمٍّ ناضخ، وتستهلكهم صنوف من العذاب والألم شتى..

هنا، في هذا المكان المقذوف بعيدا عن الحياة في جوف الموت، وُلد ميمون ذات قدر كئيب، هنا قضى طفولته ومراهقته، يدور مع قدره في أراضي أبيه كما يدور الحمار حول رحاه، زارعا، وحارثا، وحاصدا. استوت الأيام عنده على مقاسٍ واحد، فلا شيء جديد في حياته يكسر رتابة أيامه، ويُنعش وقته.

لم يكن ميمون كباقي شبان الدوار و أناسه عموما، كان يعلم بأنه في هذا الدوار مقبور الطاقة مدفون فوق الأرض، سجين هذا المنفى الذي تغدو فيه الحياة مرادفة للموت! كان ميمون على دراية بأن الحياة حيثُ هوَ باهتة اللون، لا طعم لها ولا رائحة، ففوق هذه الأراضي التي تأكلُ من وقت زارعيها أكثر مما تجودُ به عليهم، فوقها، رفقة أناس وغنم كثير، قضى جدُّه نحبَه وكذا أبوه. وهو، يوما عن يوم، يرى حياته تسيلُ ضائعة فوق تلال هذه الأرض ومنبسطاتها، فيتعقد بذلك تفكيره وتشحب الحياةُ في دواخله.

***

اِعتاد ميمون أن يرعى غنمه بعد العصر إلى ما قُبيل المغرب أو بعُيدها، فبعدما يصلي فريضة العصر يُرسل خط أغنامه المتصل في اتجاه المروج التي تملأ المكان ثم يعتلي كُدْية دأب على اقتعادها صُحبة ذاته في انتظار موعد الرجوع إلى البيت. كانت لحظة الأصيل هذه أحب الأوقات إلى نفس ميمون، يستمع فيها لخواطره، يطلق العنان لخياله، يبحث في السماء عن نافذة، وفي الغيمة عن قطرات غيث، ويفتش في قُدراته و أفكاره وو اقعه عن مُتسع لمطامحه وما تتوق إليه روحه ...! كان الأصيل لحظة يقتطعها ميمون من يومه ويسكن فيها إلى نفسه، يهرب فيها من كثرة القيل والقال التي تملأ البيت خاصة عندما تزور بعض الجارات والدته في العشيّ، ويتحلقن حول صينية الشاي يتبادلن أطراف الحديث، يحكين عن همهن المتواصل، ويُفرغن على بعضهن البعض شيئا من شَجَنِهِنَّ الثقيل.

ذات أصيل، ترك ميمون أغنامه في السفح تسرح في الكلأ، وترك الكُدية التي اعتاد اقتعادها كلما جاء بالماشية إلى هنا أو جاءت به، وتوجه صوب جبل متوسط الارتفاع عازما صعوده والتأمل من عليائه في جمال الطبيعة. وبمهارة من عاشرَ الطبيعة بتضاريسها صعد ميمون الجبل، وعندما بلغ القمة تمدد مسترجعا أنفاسه. سافر بعينيه بعيدا في الفضاء وغادر ذاته في اتجاه أحلامه...! السماء عاليةٌ، والأفق بعيدٌ، والناس في السفح، والصدرُ صندوق أحلام عجيبة... الشمس كرة ضوء تسير في الفضاء بمفردها، وبمفردها تنير هذا العالم ... ما أجمل هذه السماء وما أشنع هذه الأرض التي نحن فيها... ما أشنع دوارنا أو ما أشنعنا نحن فيه أو ما أشنعنا معاً! السماء عالم عجيب، ليس فيها موتى، وليست فيها قبور... ليست كالأرض، فيها الدوار المعزول، فيها الطريق البعيدة، وفيها المدينة التي يعيش

أهلها حياة مختلفة عن حياتنا، عن موتنا!! ليس في السماء ظُلم، وليس فيها عراك، أما الأرض ففيها من هذا الشيء الكثير...!

توقف عن خواطره الحالمة وجلس مرسلا قدميه أمامه ومستندا على كفيه. جعل يتأمل أغنامه البعيدة وهي تأكل هاوية برؤوسها على الأرض تذهب بها يمنة وتجيء بها يسرة، ثم نظر في الجهة المقابلة فتَبَدَّتْ له بيوتات الدوار المتفرقة كعلب الكبريت، بيوتات مترهلة وبالية... وبدا له بعض الفلاحين هنا وهناك يباشرون أعمالهم... وبدت له المقبرة الصغيرة في الجهة الأخرى يرقد فيها أناس من ذوي قرابته ومن جيرانه ومعارفه، أناس قتلهم البؤس، عاشوا الموت أحياء فوق الأرض ثم عاشوه أمواتا تحتها...مازال يتذكرهم واحدا واحدا، وحتى أولئك الذين ماتوا قبل أن يُولد هو يعرف سيرتهم وهمهم كما حكى له والده ذات ليلة ممطرة. أي شيء يميز أولئك القابعين في بيوتاتهم أو في فلاحتهم البسيطة عن هذه الأغنام؟ أي شيء يميزنا نحن أهل هذا الدوار، المغضوب عليهم، أي شيء يميزنا عن الجماد، عن الحيوان، عن هذا الجبل وتلك الهضبة، وذلك السفح وتلك المقبرة...؟ في أي شيء يختلف هؤلاء الذين يمشون فوق هذا المكان المجهول عن أولئك الذين أقْبِروا تحته؟ اشتعل قلبه غيظا لهذه الأفكار الذابحة فصرخ ساخطا... صرخ كأسد يزأر، كبركان غاضب، كنار تلتهب... كشيء سيتفجر به القدر ذات زمان. رفع يده إلى السماء عالية وكوَّر قبضته وهوى بها بعنف شديد على صخرة مسنَّنة كانت إلى جنبه حتى جرحت يده وسال شيء من دمه عليها.

***

في صباح باكر غائم، استيقظ أهل الدوار على صراخ أنثوي صادر من بيت ميمون. امرأة تستغيث، تصرخ بحرارة مفرطة، ترفع يديها عاليا ثم تهوي بهما على فخذيها، تنادي الله، تستغيث بسكان الدوار. لم يستمر الصراخ إلا لحظات وجيزة حتى تحلق بها الناس وقلوبهم وَجِلَة وفي الخاطر ألفُ سؤال. قالت "السعدية" وهي تلهث:

- خيرا إن شاء الله يا الضاوية، ما خطبك؟

ردت الضاوية والدموع جارية فوق خدها الشاحب:

- ولدي ميمون... ميمون...
- ما به؟
- لقد اختفى يا السعدية.. لقد اختفى ولدي ميمون أيها الناس...
- وكيف..؟
- نمنا جميعا بعدما تناولنا العشاء، كان يبدو واجما، متجهما، أحسست بأن شيئا ما يعتصر فؤاده، أو فكرة ما تعتمل في ذهنه.... توجه بعد العشاء إلى غرفته ونام...

يخنقها البكاء فتلطم صدرها وتذهب برأسها يمينا وتأتي به شمالا والصراخ يتفجر من صدرها المتصدع... واصلت كلامها وفي نغمتها لوعة الأسى الجارح:

- وفي منتصف الليل استيقظت لأشرب كوب ماء فلم أجده في غرفته. عدت إلى فراشي وأنا أنتظر قدومه بعدما رجحت أن يكون قد خرج ليقضي حاجته... غلبني النعاس وقهرتني الأحلام المزعجة فاستيقظت من جديد على صوت آذان الفجر، توجهت مذعورة نحو غرفته فلم أجده... انتظرت ... وانتظرت.. ولكنه لم

يأت... أيقظت أخته بشرى وأخاه محمدا وخرجنا نبحث عنه في أرجاء الدوار....ولكنا لم نعثر عليه...

يغلبها البكاء وتسقط مغشيا عليها... تحملها ابنتها بشرى وجارتها السعدية وعائشة ويدخلنها بيتها ويحاولن إيقاظها وقلوبهن تعيش في معاني البكاء. تتحلق نساء الدوار حولها، يواسينها، يحاولن انتشالها من ذهولها، من سهومها، يطمئنّها بأن أصحاب الدوار جميعا سينخرطون في البحث عن ميون حتى يجدوه.... يخبرنها بأن ميمونا شابّ عشريني ولن يُخاف عليه... يبحثن عن سبيل يُرجعن به بعض الأمل للضاوية التي أظلم الكون في عينيها وتلخص عذابها في يومها المكلوم هذا....

***

استمر البحث عن ميمون ما يزيد عن الأسبوع دون جدوى، تتقدم بناس الدوار الأيام في البحث ويتقدم الحزن في اكتساح قلوبهم واليأس يأخذ طريقه في اتجاه أفئدتهم. لم يُعثر لميمون على أثر... بحثوا في الدوار والأماكن المحيطة به والدواوير المجاورة ولم يجدوا له أثرا... ذهبوا إلى المدينة وتجشموا في ذلك العناء الكبير... بحثوا في الفنادق، سألوا عنه في المقاهي، والشركات ... فباءت كل محاولاتهم بالفشل الذريع..... ذهبوا إلى المحطة الطرقية، إلى محطة القطار...إلى كل مكان يُرجحُ لهم الأملُ أن يجدوا فيه ميمونا ولكن دون فائدة... تنطفئ أحلامهم وتتكسر أمانيهم وتذوب في داخلهم الإرادة للبحث أكثر وأكثر.... سلموا بأن القَدر الذي نزل، نزل ومعه ثقله، وسطوته، وجبروته، نزل ومعه اليأس والغيب المجهول...!

ذات غروب، أقبل طفل يجري في اتجاه بيت الضاوية، أخذ يطرق الباب بعنف شديد وهو يلهث، فتحت بشرى الباب وفتحت معه قلبها وآمالها، ولكن سرعان ما توقف خيالها عن بناء مسراته بعدما وقع بصرها على وجه فتى تعرفه، قالت له بصوت مبحوح:

- خيرا إن شاء الله يا زياد... ما بك؟ وما هذا الطرق العنيف؟

رد الفتى وهو يلهث:

- لقد كنت ألعب رفقة أصحابي في الهضبة البعيدة هناك، فعثرت على حذاء ميمون في حافة البئر المهجورة،...!

ثم ما لبث أن أخرج حذاء مهترئا من كيس بلاستيكي. فتحت بشرى فاها مندهشة، أخذت من الطفل الحذاء لتتأكد من الأمر. تأملته جيدا، تلمسته بيديها، ضمته إلى صدرها، قبلته، إنه فعلا حذاء أخيها الذي تركهم في اتجاه لا يعرفه أحد إلا هو.

كمن يبحث في الليلة الظلماء الدجوجية عن شُعاع قمر، خرجت الضاوية رفقة ولديْها وقصدوا جارهم العربي ليرافقهم وابنه الأكبر إلى البئر المهجورة عساهم يعثرون على خيط نور أو بصيص أمل يمكن أن ينير عتمة حياتهم وما صاروا يتجرعونه في كل وقت وحين من حزن عميق لن يقضي عليه إلا لقاء ميمون أو معرفة مستقره. رافقهم العربي وساروا مهرولين صوب مقصدهم وفي الصدر دعاء واحتمالٌ وغيمة... ذهبوا يصحبون آمالهم، وكانوا كلما اقتربوا من المكان إلا خُيّل إليهم أنهم يقتربون من ميمون أو من طريق ينتهي بهم إليه.

ما إن وصلوا إلى المكان المرجوّ، حتى خلع العربي جلبابه وألقى بطرف الحبل في عمق البئر في حين أمسك ابنه الناجي بالطرف الآخر. تمسك العربي

بالحبل جيدا وأخذ ينحدر في البئر وكله أمل أن يصعد منه ومعه الشاب المفقود، ومعه بعض عافية الأم الضاوية و شيء من شفاء الأخوين، وجواب عن أسئلة الدوار المتواصلة. والعربي في طريقه نحو قعر البئر ظلت الضاوية والولدَان يعلقون بصرهم في السماء المقمرة ويوقعونه على البئر ما بين فينة وأخرى وهم يصيحون: "العربي.. العربي.. ما الخبر؟" فينتهي إلى أسماعهم صدى جواب العربي "لم أصل بعد إلى القعر" ذلك أن البئر كانت عميقة جدا، وكانت مخيفة في الوقت ذاته لكثرة ما قيل عنها وما نسج حولها من أساطير وخرافات ظل الناس في الدوار يتوارثونها جيلا بعد جيل.... والعربي رجل نادر، قد يقدم روحه لخدمة الآخر.. عُرف منذ أيام شبابه الأولى بالتضحية والمبادرة لفعل الخير.. ولذلك لم يتراجع أو يتردد بعدما طلبت منه الضاوية أن يرافقها إلى البئر المهجورة ويغامر بنفسه لنزولها علّه يعثر على ميمون... فالعثور على هذا الأخير – ولو ميتا – فيه بعضٌ من العافية، فيه موت الأسئلة التي تتناسل كل وقت وتنخر القلب، وتجرح الحياة، فيه الخروج من قبضة الوسواس المستعلي، و انفلات من حُزن ثقيل جدا يُضعف القوة ويهدها هدا.

بعد لحظات مرت كسنوات طويلة مثقلة بالهم والأسى، ومخلوطة بشيء من الأمل، صعد العربي من البئر بخفّيْ حنين... صعد بأحزان أثقل من التي نزل بها، صعد ومعه الحسرة، ومعه الجُرح الغائر... صعد شاحب الوجه ذابل الفؤاد. كان حاله أبلغ من أن يقول شيئا، ولذلك ما إن أطل رأسه وتنهد حتى علمت الضاوية بأن أملها تبخر، وحلمها لم يكن إلا سراباً... غرست حينها عينيها الفائضتين دموعا في الأرض وهي سادرة في معاني أحزانها تنسج بجحيم أفكارها معاني بؤسها وخليط آلامها.... عادوا إلى الدوار بجروح ظنوا أنهم سيتركونها أو تتركهم، وبقروح ظنوا أن البئر سيميتها ولن يُبقيها...! عادوا

وكأنهم ما جاؤوا إلى هنا إلا لينكؤوا جرحهم المتوَرِّم...! فكأن النزول في البئر لم يكن نزولا إلا في قعر الأوهام والغموم، وكأن انتظار المفاجأة لم يكن انتظارا إلا لاستقبال وجه جديد من أوجه الحزن المؤلم... الجارح!

إن موتَ الحبيب ريح تعصف بسكينة القلب ومباهجه، ولكن اختفاءه في ظروف غامضة، وغيابه لأسابيع متتالية، والرجوع بوفاض خاو من محاولات البحث عنه، هو أمر أشد مرارة، وهو الغم المتواصل، والحزن العميق الذي يتجاوز قدرة أمٍّ في أن تحمله وتصبر على مفاتنه ومهالكه، ولذلك ودّت الضاوية لو أنهم وجدوا ميمونا، ولو ميتا، ستبكيه، ستحزن، ولكنها على الأقل ستزور قبره وتعلم بأنه غادرها إلى الرفيق الأعلى.. ستطفئ نار الأسئلة والهواجس المستعرة... إن إقبار الحبيب إقبار في الوقت ذاته للحزن الذي يخلفه موتُه، وتمرين على نسيانه ... أما اختفاؤه، فهو العيش بوساوس وخواطر متضاربة... بعضها يقول بأنه مازال حيا، وبعضها يقول بأنه ميت ملقى به في ركن مجهول...بعضها يقول بأنه في قبضة قَدر يُعذب، وبعضها يقول بأن المستقبل ينطوي على خبر الرجوع والعودة بعد الغياب...إن الاختفاء أكبر من الموت، إنه عيش الأم والأهل في المابين، بين الحياة والموت، بين أفق مشرق ومظلم في الوقت ذاته... إنه القلق الدائم الذي يقهر الفؤاد، ويتعب الفكر، ويقطع الصلة بالحياة ويعلق البصر بالذي يأتي ولا يأتي!! إنه حضور النقيضين في اللحظة الواحدة..!

لم يكن الحذاء إذا إلا تعميقا لجروح القلب، ولم يكن الذهاب للبئر إلا صعودا في أبراج الأمل وسقوطا من عليائها على أرض الو اقع المرّ، المفجع، الذي يصيب المكلوم بشجن ثقيل غير ممنون. جعلت تنظر الضاوية إلى الحذاء وهم في طريقهم عائدون، تقرأ فيه تاريخ ابنها المختفي، تتذكر من خلاله ماضيها معه، تطّلع من ور ائه على أفقها الغائم...على شمسها

الغاربة... على ليلها المستطيل، وفجرها البعيد أو المنعدم.. يُظلم الكون في عينيها وهي مسترسلة في أفكارها القاتمة فتحاول أن تبدل مسار تفكيرها الهاوي فتعمل على أن تقرأ في مصيبتها وما حل بها بعض الحروف المضيئة، فيذهب خاطرُها إلى أن الله ألقى إليها بهذا الحذاء عربونا على أن ميمونا سيأتي ذات زمان... لعل في الأمر دليلا على أن القصة لم تنته بعد، أن الغيب أرحب من صدري المنقبض، والمستقبل أجمل مما أتصور، والأمل أعرض مما أتخيل.. لعل اختفاء ابني سحابة عابرة، أو ظلام سينقشع... لعل بعد هذا الضيق بعض الفرج..!

علقت الضاوية حذاء ابنها في غرفة نومها، شدته بخيط إلى الركن وجعلته قريبا من رأسها، واتخذت لها معه طقوسا من الحب والحمق، من الجنون والشوق... دأبت على أن لا تنام حتى تضمه إلى صدرها وتشم رائحته وتمسح بيديها عليه وعيناها مغمضتان تتخيل من ورائهما ميمونا قربها يقبلها أو يضحك معها أو يحاورها كما عهدته... وجدت في الحذاء شيئا من فلذة كبدها، شيئا منها، شيئا من الغيب والمجهول متمثلا أمامها... لم يكن الحذاء في الحقيقة هو ما يذكر الضاوية بابنها فقط، فقد كانت صورة ميمون تتمثل لها في غرفته – التي أغلقتها منذ اختفى وتركتها كما هي كأنما تحتفظ بشيء منه فيها، تركتها مبعثرة الأشياء، مُلَغّمة بالأسئلة مسقوفةً بالأمل – تتمثل لها في بعض أقرانه، في الأغنام التي اعتاد رعيها كل أصيل... كل هذه الأشياء تبدو دامعة، حزينة... تستفز ذاكرة الأم وتوقظ مواجعها وتتركها مستسلمة لزخات أشجانها الماطرة... ولكن للحذاء طعما آخر في نفسها، إنها تجد فيه ما لا تجد في غيره.. تجد فيه رائحة الغيب، تقرأ فيه شيئا من ملامح مستقبل أخضر...!

***

تمر الشهور على حادث الاختفاء والوقت آخذ في مسح ذكرى ميمون من نفوس أهل الدوار شيئا فشيئا، وكأنهم لا يستقبلون الأيام إلا ليستدبروا ما تركه الحادث في قلوبهم من أحزان. وحتى بشرى ومحمد، استطاعا بعد لَأْيٍ أن يواصلا السير على سكة حياتهما مُحتفظَيْن لأخيهما ميمون بصورة محزنة في قلبيهما لا تمّحي ملامحها خاصة كلما طالعا وجه أمهما الضاوية التي شاخت قبل أوانها، ولم تُر على محياها ابتسامة مذ غادرها ميمون إلى حيث لا تدري.

وحدها الضاوية، لم يندمل في قلبها جُرح الاختفاء، وظل جديدا لا يُعمل فيه مرور الوقت عملَه ولا تُنسيه الأحداث اليومية المتتالية المتراكمة. غدت في عينها الحياة جحيما محرقا، وسماء غائمة، وأرضا جافة وصحراء قاحلة.... فقدت الأشياءُ معناها، وتغيرت المعاني، ولم تعد المسرات – إن كانت هناك مسرات – إلا صورا ممسوخة عن الفرح، ولم يعد العيش إلا تجرعا لحزن عميق متواصل مستمر من كأس حياة مؤلمة، حياة غربت شمسها قبل أن يغرب يومها. ظلت المرأة حية بملامح ميتة، وأحلام ميتة، و أفق مظلم. لا تكاد تغادر بيتها حتى تعود إليه في ذهول وسهوم كبيرين. فقدت لذة الحياة، وتمثل لها عمرها قطعة عذاب تُصرّفها أقساطا فيما تبقى لها من وقت لمغادرة الحياة بعدما اختفى ميمون مخلفا وراءه ألف شهقة، ألف جرح، ونزيف ذكريات لا يتوقف!

كانت الضاوية كلما حل موعد تناول العشاء إلا وتمثل لها ابنها ميمون في آخر عهد لها به، تتذكره عندما تعشى معها غائب العقل، واجما متبرما... لم تعهد منه من قبل إلا البشاشة والصمت الحكيم... لكنه في تلك الليلة المشؤومة كأنما انكشف وجهه عن حقيقة كان يكتمها، أو عُدلت ملامحه بيد شيطانية... دخل غرفته لينام ولم يكن في الحقيقة إلا قد دخل

غرفته ليختفي... لماذا تتركني يا ميمون؟ لماذا تقسو علي؟ لماذا تذيقني ألوانا من العذاب لا أعرف لها نهاية؟ لماذا تتركني وتعلم أنني أعتمد عليك بعدما مات أبوك؟.... تبكي الضاوية، يفرط نحيبها، يتعالى صوتها، يحاول ابناها تهدئتها... فيهدأ منها ظاهرها وفي الباطن البركان بناره المحرقة والزلزال برجاته المحطمة...!

***

مرت السنوات متتالية وكل شيء يتقهقر ويتراجع في حياة الضاوية إلا جرح اختفاء ابنها ظل حيث كان جديدا لا يبلى ويُبليها. ترهل بدن المرأة وجاوزت شبابها في اتجاه شيخوختها بسرعة مفرطة، وغارت عيناها وفقدت نضارة وجهها أكثر من ذي قبل، وصارت كأنها الحزن متجسم في هيأتها، متمثل في صورتها...!ولم يبق للضاوية معنى من النور في حياتها إلا ما يشير إليه اسمها.... وكأن الأسماء علامة على ما يفقده الناس في حياتهم ... نخر الحزن دواخلها، وهد قواها إعمالُ الذهن في مصابها وكثرةُ سهومها.... ورغم هذا كله مازالت المرأة تحتفظ بشيء من الأمل في قلبها الذي يخبرها بأن ميمونا مازال على قيد الحياة و أنه بخير .... ولولا أنها تؤمن بالله، ثم بهذا الأمل الخافت، لوضعت لحياتها حدا بحد السكين.

ذات فجر، سمعت الضاوية ابنها محمدا يقرأ سورة من القرآن الكريم فانشدت إليها... وجدت نفسها مأخوذة أمام معان تدركها بقلبها وإن فاتها فهمُها بعقلها لأنها لا تعرف كتابة ولا قراءة... كان محمد يقرأ بصوت عال، وكانت الأم أمام الصوت وأمام ما يخطر بقلبها من معان زهرةً تشتم رذاذا يحيي شيئا

من عروقها. توجهت الأم صوب ابنها محمد بعدما أنهى تلاوته، جلست قبالته وأسندت ركبتيها إلى ركبتيه وقالت له:

- ما اسم هذه السورة التي كنت تقرأ؟
- هي سورة (يوسف).. ولِمَ السؤال يا أمي؟ لم أعهدك تسألين عن هذا....
- شعرت براحة عظيمة يا بني وأنت تقرؤها... قلبي ينبئني أن فيها حزنا انفرج... ابنا اسمه يوسف قد اختفى... أبا اسمه يعقوب فقد بصره وأرجعه الله له... قلبي ينبئني أن شيئا من ميمون في السورة وشيئا من السورة في ميمون.... وجدت تلاوتك يا بني تغسل أحزان قلبي... هي أحزان باقية ولكنها بمذاق آخر... لست أدري ما أقول لك..

فرح محمد لأنه عثر على دواء يُذهب به بعض أشجان أمه الثقيلة، واصلت الأم حديثها قائلة:

- إني راغبة إليك يا بني في طلب..
- وما هو يا أمي... مستعد لألبي طلبك على أتم وجه...
- أعد قراءة هذه السورة على مسامعي... وجملها بصوتك الرقيق..

تتكئ الضاوية على الحائط وتمدد رجليها وترتخي سادلة جفونها، ويشرع محمد في قراءة السورة من بدايتها: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. ألر. تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون (....) إذ قال يوسف لأبيه يا أبتِ....). تنصت الضاوية بعمق إلى الآيات وهي تتسرب إلى باطنها فتحسها كالغيث تحيي شيئا من أنوارها الميتة، تكنس بعضا من

أحزانها وتخفف من وطأة الهموم التي أذهبت نضارة وجهها، وجعلتها تحيا حياة بمشاعر الموت الغاصب!

بعد مدة كان محمد قد أنهى قراءة السورة، التفت إلى أمه وهو يغلق المصحف، فوجدها غارقة في بكاء صامت حزين. انقبض قلبه للمشهد أول الأمر، توجه صوبها واستقبلها بوجهه الحائر وقال لها مشفقا عليها من حالها المتهالك:

- ما بك يا أمي... ظننتُ القراءة ستخفف عنك...فإذا بك تنخرطين في بكاء جارف..
- ومن قال لك أنها لم تخفف.... والله يا بني إني لَأُمّية لا أعرف قراءة ولا كتابة... ولكني تلقفت بقلبي كثيرا من معاني هذه السورة...
- الحمد لله... ولم البكاء إذا...؟

تنهدت الأم وقالت بصوت مخلوط بالبكاء:

- إنه القلب يا بني عندما يغادرك.... إنه القدر عندما يقف جدارا بينك وبين من أحببت... ألم يبكِ يعقوب كثيرا..؟
- بلى ... بكى لفراق ابنه يوسف عليه السلام...
- فلم تلومني إذا... أبكي ولكن يشهد الله أن يقيني فيه كبير.... هذا القلب يا بني بين جوانحي يخبرني أن ميمونا لم يمت... لم يغادر هذه الحياة... السورة تقول لي بأن ميمونا سيعود...

أرسلت ذراعيها .. ألقى محمد بنفسه في أحضانها .. تعانقا... بكيا... رسما بهما صورة رمادية... وسماء غائمة.. وشيئا من قوس قزح!

***

مرت عشرون سنة على حادث الاختفاء... ودوار "المساكين" لم يتقدم فيه إلا الزمن.. مات أناس، وولد آخرون... والمقبرة آخذة في التوسع واكتساح الأرض والإنسان... والسكان مازالوا يدورون حول قدرهم، أحلامهم لا ترتفع ولو شبرا عن الأرض... والسماء بالنسبة إليهم عالية .. والجبل شاق.. والكلام رصاصة قد تقتل... والصبر على هذه الحال نعمة وخير كبير...!

أما ميمون فاسم بلا مسمى.. مات في أذهان الناس... ولا أحد يذكره الآن.. غدا طللا.. بل لم تكد تمر عشر سنوات على حادث اختفائه حتى انتشرت الأقوال بأنه مات... وقال بعضهم لقد صادفه يجوب شوارع مدينة بعيدة مخبول العقل معتوها وعندما طلب منه أن يرجع معه إلى الدوار شج رأسه بحجر وهرب بملابسه الوسخة ورائحته الكريهة.. وقيل إن البئر التي عُثر له فيها على حذائه ابتلعته... فهي بئر بها جن وأرواح شريرة... عن ميمون ألفت قصص شتى، منها ما يُبكي ومنها ما يُرْدي ...!

الضاوية، وحدها لم تنس وعكتها العاطفية ولن تنساها.. لقد ظلت وفية لذاكرتها، لجرحها الدامي، وحزنها الرهيب... كيف تنسى وكل الأشياء تذكرها بفقيدها... آذان الفجر، تناول العشاء، الغرفة المُقفلة على تاريخ قديم غابر، الحذاء المعلق... كلما تذكرت الضاوية ابنها عاودها اليأس من جديد ففقدت آمالها وتضخم الشؤم في ثناياها وانطمست معالم النور في أفقها، وتسرب القنوط إلى دواخلها مكتسحا أفكارها. تغيرت قسمات وجهها واختزنت في ثناياها الحزن الصامت الذي تراكمه الأيام وتزيد من حدته بدل أن تضعف من قوته. هَزل جسمها، وكثر سعالها ولزمت في أغلب أيامها الفراش... كلما وضعت رأسها على الوسادة تمثل لها عمرها شقين بلونين مختلفين.. أبيض وأسود... أما البياض فلم يتجاوز لحظة كانت في سن الأربعين...قبل موت الزوج واختفاء ميمون.. أما ما بعد الأربعين، فهي

عشرون سنة كاملة غير منقوصة، كتلة وقتية سوداء مقتطعة من الليل، لا نور فيها ولا ضياء... وحده الألم والظلام سيدا الزمان.. وحتى إن كانت ابنتها بشرى قد تزوجت، و ابنها محمد قد كبر وصار يحمل عنها أعباء الحياة ويسعى لإسعادها إلا أن ميمونا قد جرح قلبها جرحا لا يندمل... جرحا لا تنسيه الأفراح ولا صروف الزمن... والضاوية الآن زهدت في الأحلام، زهدت في الأمل، وكل الأفكار التي كانت تروج في ذهنها من قبل وتلمح لها بأن الخير آت، والمستقبل وردة لم تبتسم بعد، لم تعد أفكارا تسمن أو تغني من جوع.. الضاوية جسم فارغ يمشي على الأرض، تنتظر الموت واليوم الذي يُكنس فيه طينها في اتجاه القبر ... أما ميمون فانتظاره غدا عندها تعلقا بالمحال... صارت ترى بأن إقناع نفسها بو اقعها الأليم أرحم بها وأضمن لسلامتها من أن تعلق بصرها بشبحٍ... بعتمةٍ... بخيالٍ!

***

السماء مشرقة، والجو مغسول بأمطار هطلت قبل أيام، والدوار يبدو من بعيد هضبة بلون أخضر، والناس فيه يباشرون أعمالهم كعادتهم، لا شيء يربك استقرارهم أو يزعج رتابتهم. الحياة هنا هادئة هدوء الموت، والصمت عنوان، والمقبرة في الضفة الأخرى تاريخ كريه، وبيت الضاوية... بيت ميمون، علامة استفهام حنطها الغيب...!

لم يكد النهار ينتصف حتى سمع أهل الدوار صوتا بعيدا لمزامير وطبول تقرع...لم يهتموا... أخذ الصوت يقترب من الدوار شيئا فشيئا... خرجت النساء من البيوت وترك الفلاحون صغارا وكبارا أعمالهم و أقبلوا مهرولين جميعا في اتجاه بيدر العربي.. بيدر واسع، يطل على الطريق البعيدة

التي يقبل منها الصوت المجهول... اشرأبت أعناقهم.. تبادلوا الحديث وأعينهم تبحث في الأفق والطريقِ المنحدرة عليهم يرقبون من يكون هؤلاء الذين يقرعون الطبول وما شأنهم:

- هذا صوت أناس يعزفون ويرقصون...
- أهو عرس؟
- لا أدري... ولكن من ذا الذي سيُقبل على الزواج في الدوار دون أن نعرف خبره..؟!
- معك حق...

لم يَطُل الانتظار بالسكان حتى أطلَّت عليهم من منعطف الطريق جماعة من الناس ، يعزفون ويغنون، ويتقدم الجماعةَ بعض الرجال بلباس أنيق يدل مظهرهم على وجاهتهم وعِظَم شأنهم... كان محمد وسط أناس الدوار... لم يكد يتفحص وجوه المقبلين حتى ألقى بقادومه على الأرض وهرول في اتجاه رجل يتوسط الجماعة المقبلة بفرحها وأهازيجها... غادر رجلٌ أربعيني صف أصحابه وفتح ذراعه وفمه و أقبل يجري في اتجاه محمد ... تعانقا... غابا في مشاعرهما... لم يجدا كلمة يقولانها... انحصر الكلام في دواخلهما ... البكاء حار، والقبلات متبادلة بعنف شديد...

صاح العربي وهو يدعو بقية الناس للإقبال على الجماعة الوافدة:

- إنه ميمون ... أنا عرفته... والله عرفته ... ثم صاح بأعلى صوته:
- نادوا على الضاوية.... قل لها إن الحياة أشرقت...

أما ميمون ومحمد، فجسمان متلاصقان، روحان متعانقتان... وبينهما تاريخ عشريني يسيل ... تذوب الأحزان وتعلن فناءها في حضرة هذا المشهد المخلوط بالشوق والبكاء والصمت... قال محمد والدموع تسيل من عينيه:

- أأنت ميمون أخي ؟....
- نعم ...

ثم تعانقا مرة أخرى و انخرطا في بكاء عميق.. والابتسامة على محياهما معا... إنه القدر عندما يجمع في الوجه المعاني الضاحكة إلى جانب معاني الحزن المتهالك... أقبل ميمون يسلم على الحاضرين من أهل الدوار واحدا واحدا ويعانقهم مخترقا صفوفهم فيما ارتفعت الزغاريد ودقات الطبول وأغاني الصغار... أما الضاوية وبشرى فجاءتا تجريان والفرحة تسبقهما ... لم تكد عينا الضاوية تقع على ميمون حتى انفجرت ابتسامة من ثناياها و اتخذت الدموعُ مجاريَ لها على خدها الشاحب ... ولكنها دموع بطعم الفرحة، وبمذاق ربيعي ضاحك...صاحت بأعلى صوتها وهي مقبلة تجري في اتجاه ولدها الخارج لتوه من قبر المجهول: "ميمون ولدي... ميمون ولدي...يا رب لك الحمد".. أشرقت الشمس في وجهها بعد خريف غائم امتد لعقدين، و انقشعت تلك الكآبة القديمة التي غطت ملامحها وخسفت بابتسامتها... وخرجت الضاوية لأول مرة من الحزن الذي تلبسها وخيَّم على أجوائها، بدت كأنها تسلخ ذاتا قديمة مهترئة بحالاتها ومعانيها اليائسة وتلبس أخرى جديدة... أصيبت والعينان مسمّرتان على ميمون بنوبة هستيرية من البكاء الضاحك، وتجاوزتها موجةُ الفرحة ومدُّ السرور المتعالي فصارت تصرخ في الناس بكلمات ملونة بالسعادة ... مملوءة بالحمد والثناء لله رب العالمين، الذي بعثها من مرقدها وأخرج لها الحياة من عُمق موتها ..

أما ميمون فرأى أمه وهي مقبلة تجري في اتجاهه فانفجر باكيا كطفل صغير، يخفي في دموعه إحساسا بالذنب تجاه أمه التي كواها باختفائه المباغت... وعذبها بطول غيابه.. وتركها تعيش الموت على قيد الحياة.. احتضنها وهو يقبل وجهها ورأسها ثم هوى على قدميها يقبلهما

ويشتم رائحتهما... ثم نهض من جديد يقبل يديها وهو يضغط عليهما وينظر في وجهها الذي لم تفارق قسماتُه ذهنه طوال هذه المدة... أما هي، فجعلت تتفرس في ابنها.. تتأمل قسامته، تمرر يدها على شعر لحيته الذي يخفي وراءه عمرا بأكمله... كان ميمون والضاوية، والقبلُ الحارة المتبادلة، والناس الذين يتحلقون حولهما، والأصوات المختلطة هنا وهناك، صورة للدنيا عندما تضحك في وجه إنسان تجرع المعاناة سنين متتالية، وعاشرها، وذاق مرارتها...

***

في الطريق إلى البيت رفقة أمه وأخويه وبعض الناس الذين تقاسموهم الفرحة، جعل ميمون يسير بعينيه في ملامح الدوار.. يتفحصه.. يتأمل في منعطفاته.. يقرأ تاريخه القديم.. يسترجع ذكرياته المدفونة في الجبل، في الكدية التي اعتاد اقتعادها كلما رعى غنمه، في الأراضي الخضراء المترامية التي دأب على العمل فيها، في المسجد الجامد.. لا جديد يُذكر، وكأن الموت جاثم على الدوار بأشيائه... أما الناسُ الذين جاؤوا يرحبون به، فمازالوا يحملون الفقر على ظهورهم قدرا يصنعونه بأيديهم، سيماهم على وجوههم من أثر الحرمان، لا شيء تبدل في حياتهم، وحتى هؤلاء الصغار والمراهقون الذين وُلدوا بعد اختفائه لا يرى فيهم أفُقَ الجديد، ولا عمق الفكرة، ولا نظرة حالمة إلى ما وراء الدوار وما وراء الموت القابع فيه... لم يجد شيئا مستجدا ولا مختلفا غير المقبرة التي أكلت الأرض وابتلعت الأرواح وتوسع بطنها... البيوتات هنا وهناك مستمرة في شيخوختها تكرس العجز والخلود إلى الأرض...

يُطالع ميمون من جديد حالة الدوار بما فيه ومن فيه، الكل باعث على الملل، وجارف نحو الحزن والأسى... هؤلاء ناس لا يقرأون ما في الطبيعة من رسائل...لو تأملوا هذه المنبسطات إلى جانب المرتفعات، وهذه الجبال البعيدة إلى جانب هذه السفوح والهضاب...لو تأملوا هذه السماء العالية في عليائها... هذه المقبرة التي تتضخم على حساب الحياة... لو تأملوا هذه الأشياء بعين مبصرة لعلموا أن الحياة كلها تدعو إلى المعالي.. تحذر من السير على نمط واحد لا يتغير ولا يتبدل، تدعو إلى الأمل.. إلى الكفاح، إلى ضرورة قهر الموت في الكائن الحي.. ولولا أنني أحمل في هذا الصدر السر الذي من أجله اختفيت.. وأحمل في هذا الرأس المشروع الذي من أجله عدتُ...لمتّ كمدا، وغيظا، وشجنا...

***

لقد أصبح ميمون خلقا آخر...! غاب عشرين سنة عن الدوار صنع فيها حياته من جديد، تحذوه الإرادة وصلابة الرأي وعزيمةٌ كالحديد، اغتسل فيها من جهله، وتطهر من ضعفه... وكلما طاف به طائف من اليأس أو التنازل عن حُلمه تذكر حال الدوار البئيسة، وحال ساكنيه الذين يغطون في سباتهم خاويي الوفاض من الأحلام والآمال، فاستجمع عزيمته وواصل سيره في اتجاه أفقه الذي اختلقته طموحاته ذات يوم...!

قال ميمون وهو جالسٌ قرب أمه وبعض الناس ممن جاؤوا يشاركونه فرحة العودة:

- لم يبق مني فيما تعلمون عني إلا تلك الأسرار الطموحة التي انطويتُ عليها ولم أطلع عليها أحدا، لم يبق مني إلا ذلك الحب العميق للحياة، والإيمان الأعظم بذاتي.. وذلك اليقين الكبير في

الله... لقد أخرجت اليوم حياتي من موتي، و أصبحت مقاولا كبير الشأن، وخلقت علاقات مع ناس السلطة وذوي النفوذ من هنا وهناك، وصنعت ذاتي بنفسي منسلخا من وضعي القديم... لقد خرجت من الدوار مرتين، خرجت منه بجسدي، وخرجت منه بعقلي..!

رد عليه بعض الحاضرين غارقا في العجب:

- وكيف ذاك يا ميمون؟ ما عهدناك إلا راعيَ غنم!

أجابه ميمون مبتسما:

- وهل ترى رعي الغنم عملا بلا معنى... إنه يُمهّرُ صاحبه على الصبر، ويعلمه التأمل، والعمل من أجل الآخر... وبذل النفس من أجل الحياة... "ما من نبي إلا وقد رعى الغنم"... ألا ترى الراعي يفني وقته لتأكل غنمه، ألا تراه يبحث لها عن مواطن الكلأ والعشب.. ألا تراه يرعاها بعينه وهي تلتهم ما تسد به جوعها.. ألا تراه يرعى فيما يرعى، وحدتها واجتماعها وألفة صفها...؟!

واصل ميمون حديثه وقد رأى الدهشة واللذة في الإنصات مرسومة على ملامح مخاطبه:

- أسبق لك أن رأيت راعيا يسبق غنمه وهو متجه بها إلى المرعى أو آيب بها في اتجاه مأواها؟ إن الرعي فناء الأنا لخدمة الجماعة.. إنه النظر بعيدا..إنه استنشاق الحياة.. لقد كان رعيي للغنم محفزا لي على التأمل، على النظر من فوق إلى هذا الدوار... كان مشجعا على التمادي في الأحلام والتفكير للخروج رفقتها إلى الحياة...

- ولكن كيف تم لك ذلك؟

- لقد قهرت الخوف الذي كان بداخلي، والتردد الذي كان يملأ رأسي ويغلف أحلامي، فأخرجت من ذاتي رجلا له السلطة، والحكمة، والمال الكثير، و إني إن شاء الله لعازم على بث الحياة في هذا الدوار...

قالت الأم ممازحة فيما يشبه العتاب وهي تتأمل ابنها بعين الرضا والفخر:

- ولكنك اختفيت يا بني فجرحتني جرحا ظل يتجدد كل يوم...وكأنك لم تختف يوما واحدا انصرفت فيه عنا، ولكنك جعلتَكَ تختفي كل يوم فأتعذب بذلك عذابا لا يخفّ... لقد غبت يا بني...

قبل ميمون رأس أمه وضمها بذراعه اليمنى وقال:

- لم أكن قادرا على البقاء.. ولا حتى امتلكت تلك القوة التي تجعلني قادرا على مواجهتك يا أماه بقراري في الرحيل.. ولكن يا أمي الحمد لله أنني عدت، ولئن كنتُ قد غبت فهو غياب سيولّد الحياة، ويشخص الأمل، ويخرج الأحلام من عالمها البعيد ويمثلها عما قريب حية تسير على الأرض. إنها المغامرة من أجل الحياة يا أمي، من أجل التنقيب عن المعنى والبحث عن الذات...! وسوف ترين عاجلا كيف أن اختفائي أزهر و أينع..!

تبادل ميمون وأمه النظرات، والابتسامات الصافية، ضمها إلى صدره وجعل يقبلها وهو يمسح على ظهرها. أما الضاوية، فكانت عبَرَاتُ شكرها لله تسيل على خدها وهي تتذكر معاني سورة يوسف.. معاني الفرج.. معاني العودة... معاني النشوة واللقاء بعد الغياب...تتذكر يوم قالت لابنها

محمد بعدما سمعته يقرأ القرآن (في السورة شيء من ميمون وفي ميمون شيء من السورة)..! أما الحاضرون، فكانت مشاعرهم مختلطة وهم يستمعون إلى ميمون وكأنهم يستمعون إلى كائن نزل من السماء.. يرون فيه معنى الشمس، ويقرؤون في سِمَاته الصباح، وتفتح الورد، و إقبار المقبرة! كانوا يستمعون إليه فتُتَرجم لهم عباراتُه معاني الخلاص، معاني الخروج من الكهف..!

وقبل أن ينصرف الزوار في حال سبيلهم، سأل العربي ميمونا وهو يضحك:

- ولكن يا سي ميمون ما قصة الحذاء...؟
- أي حذاء؟
- أنسيت...؟ حذاؤك الذي تركته قرب البئر...

رد ميمون ضاحكا:

- آه ... تذكرت.. هو في الأصل حذاء أبي رحمه الله.. عندما خرجت في تلك الليلة وجدت في الحذاء دعوة إلى الرجوع... عتابا على الرحيل... وجدته يثقل خطواتي بما يختزن من ذكريات وينبش في ذاكرتي من تاريخ فخفت أن أنثني عن قصدي أو يصيبني الحوْر بعد الكوْر، فخلعته ووضعته على حافة البئر المهجورة وواصلت السير حافي القدمين...

صمت العربي قليلا، ثم تبادل مع الضاوية نظرات تخفي وراءها قصة شجية غابرة ... ثم ما لبثا إلا قليلا حتى انفجرا ضاحكيْن..!

****

ذات أصيل، وقد مضى على حادث العودة ما يصل إلى خمس عشرة سنة، قصد ميمون الجبل الذي صعده ذات زمان راحل... ارتقاه، تمدد فوقه، تأمل الأفق كثيرا، حمد الله في عمقه.. وجد في نفسه شيئا من معاني الشمس التي تنير العالم ... ووجد فيه كذلك بعضا من معاني السماء.. كما وجد شيئا من السماء معكوسا على الأرض، على الدوار...! كان متكئا فجلس، وجعل يسير بنظره في الدوار الذي لم يبق فيه من تاريخه القديم إلا الطلل... بدت له المدرسة بفصولها الجميلة، وبنايتها العالية، وتبدى له الأطفال من بعيد يلعبون في ساحتها، يجرون ويقفزون... وتراءت له صومعة المسجد الكبير بفنائه الواسع وشيء من ملامح زخرفته الر اقية... وفي الجهة المقابلة، تظهر تعاونية الحليب التي سحقت شيئا من بطالة شبان الدوار، وإلى جانب التعاونية توجد الجمعية التنموية حيث تتعلم النساء الخياطة، ويمحين شيئا من أميتهن. وما بين التعاونية والمسجد تمتد الطريق المعبدة التي فكت عن الدوار عزلته... ومن الجهة الخلفية، تبدو دور السكان ببنائها الحديث جميلة منسقة منتظمة كأنما رسمتها يد فنان محترف، وعلى مبعدة من ذلك المقبرة بسورها العظيم... والعين تتجول في هذه الملامح التي لم تكن للدوار من قبل، غنت دواخل ميمون واستشعر النصر، وأحس بجمال لحظته التي جسّد فيها أحلامه وبعث الروح في الدوار، شعر بأن ما في قلبه من فرحة وسعادة لن تسعها هذه الدنيا بأكملها، نظر إلى الحجر المسنن إلى جنبه، تذكر يوم هوى عليه بقبضة من يده حتى سال دمه، ابتسم، ثم نزل يقبله وصوت الأطفال في الكتّاب يتناهى إلى سَمْعِهِ من بعيد: (ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها)..!!

فاتح دجنبر٢٠١٦م

طنجة - القصر الكبير

حُبٌّ عاصِفٌ..!

لم يكد الاجتماع ينتهي حتى غادرت المعلمة سعاد المدرسة محتفظة بصورة المعلم الجديد في عمق ذاكرتها، وجدت في قلبها شعورا خفيا من الإعجاب به، أحست شيئا ما يتسلل تحت عقلها في اتجاه قلبها. كان الحَسَن معلما شابا في مثل عمرها لم يتزوج بعد، رشيق القد وسيما، وكانت ملامحه الفاتنة الأسيلة، زيادة على ابتسامته الخفيفة، مما يزيد طلعته بهاء وحسنا.

غادرت سعاد المدرسة بأحاسيس مرتجفة، وقلب يقف على قدم واحدة، وكانت تبتسم كلما استرجعت ذاكرتُها طريقة حديث الحسن وهو يعرِّفُ بنفسه في بداية الاجتماع، كانت كلماته تخرج من فيه مشكولة، وكانت حركاته تبدو في عين سعاد بهية، فخالَتْهُ صورة للجمال البشري غادرت لوحة معلقة وتشكلتْ أمامها.

على مقربة من الوصول إلى البيت، بعدما قطعت طريقا، وداعبت في دواخلها إحساسا فيه لون الورد وجمال الندى، تذكرت سعاد أنها زوجة وأم لابن في ربيعه الخامس، ومن الغباء أن تسترسل في خيالاتها، وتفسح المجال لخواطر بقدر ما تبدو وردية تخفي وراءها الجحيم وشيئا من الهاوية. تذكرتْ هذا بعدما تَبَدَّت لها باب المنزل قريبة جدا، تذكرت أنها ترحل بأحلامها عن حياتها، وتهاجر بخفايا مشاعرها التي زارت قلبها في اتجاه سماء عالية... بلوغها فيه الجرأة وبعضٌ من المستحيل. خرجت من ذاتها الحالمة، وحاولت أن تشعل عقلها بدل قلبها، وأن تغادر الأحلام العابثة في ذهنا وتستقر بواقعها. قبل أن تفتح الباب وتصعد السلم، حاولت أن تصعد قليلا بمعانيها، أن تعود بعقلها إلى مكانته، فمن مآسي القلب، ومقالبه، أنه إذا خفق كثيرا يُتْعِبُ العقل وقد يقتله!

بعدما فتحت باب الشقة في الطابق العلوي، استقبلها ابنُها يوسف بابتسامته البريئة وكلماته الطفولية جاريا في اتجاهها بعدما رآها قد شرعت في وجهه ذراعيها. احتضنته سعاد كثيرا، وضمته بقوة إلى صدرها، وكأنما تريد أن تُشعر نفسها بو اقعها وتستفيق من بعض الخواطر المجنونة التي تَبِعَتْها من المدرسة. أما زوجها محمد، فقام مبتسما كعادته وقبلها في وجنتيها ثم دعاها إلى الجلوس بعدما أخذ يوسف في يديه وجعل يلاعبه.

****

دأبت سعاد على أن تصادف الحسن في أوقات كثيرة من العمل، وكان من شأن هذا أن ينمي هواجس سعاد التي أنبتها الإعجاب الأول بهذا المعلم الجديد. كانت تلتقيه كثيرا في قاعة الاستراحة، وكان قسمه مجاورا لقسمها، فكانت ما بين فينة وأخرى تنصت إليه وهو يُعلم الصغار الأبجدية أو يحفظهم بعض السور القصيرة. كانت تتساءل دائما في سرها عن إعجابها به، تتساءل أي شيء يميزه جعلها تفكر فيه وإن كانت تعلم أن تفكيرها لا يعدو أن يكون كتابة على الماء لا يمكن بحال أن يصير و اقعا، فهي أمّ وزوجة، وهو مازال عازبا، وكلُّ حُلمٍ أرادت تشييده سيتناثر كرماد تذروه الريح في يوم عاصف.

ذات يوم، وبعد فترة صباحية شاقة من العمل، اقترح الحسن على سعاد، إن كانت تقطن بعيدا عن المدرسة، أن يوصلها في سيارته في اتجاه بيتها. قبلت سعاد اقتراحه بعد تردد عنيف دار في رأسها، ركبت معه السيارة وجعلا يتحدثان عن أحوال التعليم ومستوى التلاميذ، والمشاكل التي تواجه المعلمين. كان الحوار رسميا إلى أقصى الحدود، وكان كل منهما يصرف نظره عن الآخر تجنبا لما تفرضه اللحظة الأولى من حرج.

بعيدا عن البيت طلبت سعاد من الحسن أن يتوقف عن السير لتغادر السيارة مخافة أن يراها زوجها فتتيقظ في دواخله الغيرة أو يصيبه شيء من الوسواس. نزلت من السيارة شاكرة له جميله، واتجهت صوب البيت تاركة ذهنها لاسترجاع حوار لم يدم إلا دقائق قليلة حرك في أعماقها أحاسيس غريبة وزادها إعجابا بهذا الشخص الذي صارت تراه قد عُيّن مرتين: في المدرسة وفي قلبها. لكنها رغم ذلك لم تكن ترضى عن هذه المشاعر التي صارت تنتابها ما بين اللحظة والأخرى، ولذلك كانت كلما وجدت نفسها غارقة في تذكر الحسن إلا وعملت على تبديل مسار تفكيرها الذي تخاف أن ينتهي بها في مغامرات مجنونة.

****

لم تكن سعاد تعلم أن المعلم الحسن هو الآخر معجب بها إلى أن فاجأها ذات ظهيرة بهدية بعدما صعدت السيارة ليوصلها إلى بيتها قبل أن ينصرف هو في حال سبيله. أخذت منه الهدية وفي القلب ورود ندية تتفتح، وفي الذهن أحلام نائمة تستيقظ، وفي وجه المعلم الوسيم سحرٌ جذاب يأسر. ارتبكت سعاد وهي تتسلم الهدية، أحست بأن عقلها يعيش لحظاته الأخيرة ليترك الساحة فارغة أمام حماقات قلبها الذي يسير على غير هدى.

لم تكد سعاد تصعد إلى الشقة وتودع زوجها الذي سينصرف للعمل مع الثانية زوالا حتى هرولت إلى محفظتها وأخذت الهدية وفي القلب ألف احتمال وزيادة، فتحتها فطالعتها ساعة يدوية جميلة جدا يبدو من نوعها ومظهرها أنها باهضة الثمن، وإلى جانب الساعة وجدت ورقة صغيرة مزينة بورود في جانبها تتوسطها جملة مكتوبة بخط جميل مثير(أتمنى أن تنال هذه

الهدية إعجابك، فليس هذا إلا عربون محبة... عربون حب). أغمضت سعاد عينيها وحلقت بعيدا في سماء الجُمْلَة، أحست بها جملة منعشة، تنفست في فضائها، ورسمت بأطيافها عوالم جديدة تنفتح على غيب مجهول يتمرد على الو اقع... تعيد قراءة الجملة، تسير فوق حروفها حاملة بيدها قلبا ملتهبا وبذور أمل وأشو اقا عارمة، ولا تكاد تصل إلى نهايتها حتى تعيد قراءتها مرة أخرى. والعين تتزين بالتقاط حروف الجملة، أحست أن قلبها يرقص في صدرها، أن أشياء جديدة يمكن أن يبشر بها المستقبل، أن الحياة لعبة عجيبة ومن الخطأ أن يخضعها المرء للعقل وحده. لأول مرة، تيقظ في خاطرها ما درسته ذات زمان عن التنمية الذاتية، عن الإيمان بالأحلام، عن السعي لصناعة الحلم مهما كلف صاحبه!

بعد فترة حالمة، فتحت عينيها وضمت الساعة إلى قلبها، ثم جعلت تتمشى بعينيها في أرجاء البيت، وتتأمل طفلها المنهمك في مشاهدة الرسوم المتحركة. وكعادتها كلما عصفت في ذهنها الأفكار المتضاربة، والأحلام اليَقِظَة، أسندت ظهرها إلى الحائط، وعقلها إلى التفكير، وقلبها إلى عالم الخيال الرحب، وخرجت من ذاتها في اتجاه شاطئ تستقر عنده نفسُها.

****

اكتشف الأستاذ محمد أن زوجته في الأيام الأخيرة لم تعد كما كانت، ظن ذلك اضطرابا طالها سيغادرها ثم تستقر نفسُها وحالتُها من جديد، ولكن الانتظار طال به دون جدوى. ففي أصباحها الفارغة مثلا، لاحظ بأنه كثيرا ما يأتي من العمل ويجدها مازالت مسترسلة في نومها، ثم لا تلبث إلا قليلا حتى تنهض لتغتسل ثم ترتدي ثيابها وتغادر البيت وتتركه لوحده أمام جوعه، ثم بعد ذلك أمام بيتٍ مبعثر الأشياء! وجدها أخذت تسلك طريقا جديدة، لم تعد كعادتها تمازحه، ولا تسكن إليه، ولا حتى تشاركه النقاش أو الكلام، وكلما فتح معها موضوعا تجيب باقتضاب كأنما تقترض الكلمات من بنك، أو تصعد بها من قاع جبّ...!

تفاقمت حالتها، ولذلك صارت في فترة لاحقة تهمل البيت وواجباته أكثر من أي وقت مضى، بل صارت تفرّط في بعض حقوق صغيرها، وكثيرة هي الحالات التي ذهبت به إلى الروض في وقت متأخر، أو تركته دون أكل إلى فترات متأخرة عن المعهود. كانت تعيش في واقع غير الذي هي فيه، ولذلك انصرف عنها تركيزها وفرّ منها ضميرها، فلم يبق منها إلا جسد يابس يتجاوب مع حياة الزوج والابن تجاوبا يتخلله الموت. كانت تسعى مع زوجها إلى افتعال المشاكل، وخلق النزاعات، والنبش في النيات ومحاسبة الصغائر.

أما الأستاذ محمد، فكان إنسانا رصينا، ميالا إلى الجدية، عميق الفكرة، ولذلك فضل أن يراجع نفسه قبل أن يسائلها عن سر تغير سلوكها واضطراب مزاجها. جعل يسترجع وقائعه معها محاولا الوصول إلى غلط أو خطأ اقترفه في حقها دون شعور فأربك ميزان تعاملها معه وأخرجها بذلك عن سواء صراطها. ولكنه يخرج من محاسبة ذاته صفر اليدين، لا يجد في تاريخهما المشترك إلا أنه أحبها بصدق فتزوجها، ثم ضحى بغاليه ونفيسه من أجلها. لا يذكر، فيما يذكر، أنه رفع يده عليها، أو نهرها، أو رجمها بكلام جارح، أو قذف

عليها شيئا من سموم غضبه حين يشتد عليه ويصبح عالي نفسِه سافلها. تمشى في دروب ذاكرته، فوجد نفسه لم يترك لها فرصة لتكرهه أو تنفر منه، كان . قبل أن يبيع سيارته – يصحبها في سيارته لتزور أهلها مرارا رغم المسافة البعيدة التي تفصل بين مقر عملهما وبيت أهلها، كانت مسافة طويلة يسقط شيء من عمر الإنسان على ظهرها، بعدما يركبه كثير من العياء. يذكر، أنه كان يفاجئها كل شهر بهدية، أو بسفر... ولكن الزمن خداع.

بعدما تبدى للأستاذ محمد أن حالة زوجته الملتوية نابتة من ذاتها، مشرئبة من شيطان نفسها، قرر أن يقترح عليها ذات أحد الخروج في نزهة ويصحبا معهما ابنهما يوسف، ولكن سعاد لم تستجب للاقتراح إلا بعد جهد جهيد.

بعد الوصول إلى مقهى خارج المدينة مطل على الطبيعة، جلسا إلى طاولة بعدما تركا يوسف يلعب جانبا. جعل محمد يتأمل وجه زوجته وكأنه يبحث عن مفتاح لبدء النقاش، قال لها مداعبا:

- سوسو

ردت بجمود:

- نعم
- ما بك
- لاشيء
- ولكنني أحس أن هناك شيئا يعتمل داخلك، ما بك ؟
- لا شيء.. ربما مجرد إحساس انتابك لا غير
- ولكن...
- ولكن ماذا؟ قلت لا شيء..

قام محمد من كرسيه و انتصب أمامها وثبت عينيه في وجهها وقال:

- الحياة الزوجية يقتلها الغموض

ردت بانفعال:

- تماما كما يقتلها الشك وكثرة السؤال..
- ولكنك غامضة... ولولا غموضك لما سألتُ..
- ولكني أجبتك، ولولا شكك لما سألتَ...
- صرت في الآونة الأخيرة مختلفة تماما... ما هكذا عهدتُك؟
- أوه! ألم أقل لك إنني لا أريد الخروج... أ أجبرتني على الخروج لتصب علي جام شكك وهلوساتك...

ضبط محمد انفعاله، أرسل تنهيدة عميقة، ثم جلس على كرسيه وقال لها:

- ماذا تقترحين حتى تعود المياه إلى مجاريها.. ؟ وإن كنتِ أصلا لا ترين بأن هذه المياه قد خرجت عن مجاريها..

نظرت إليه في استهزاء، وقالت:

- من الأفضل ألا أقول ...
- بل قولي
- محمد... أنا في الحقيقة لم أعد أرتاح لحياتنا معا أرغب في الطلاق...

نهض محمد من كرسيه نهضة قوية كأن شيئا من الكرسي تفجر به، نظر إليها منكمش الملامح مستغربها، قال لها:

- ماذا؟
- كما سمعت...
- هذا موضوع لا يمزح الناس بخصوصه..
- ومن قال لك أنني أمزح؟
- سعاد

- ماذا؟
- هل تتحدثين بجد؟
- قد يكون ذلك...

قالت هذه الجملة بانفعال واضح وقامت مغادرة الطاولة في اتجاه السيارة بعدما جرت الصغير وراءها...

****

صارت سعاد تعيش في دنياها بوجهين وفي الصدر قلب بمعنيين. كانت لا تلبسُ الحياةَ أو لا تلبسها الحياةُ إلا إذا دخلت باب المدرسة، حيث الحسن، حيث الحب الجديد ومشاعر تموت مرة وتحيا مرات لتدفع في اتجاه بناء حياة على أنقاض أخرى. على عتبة المدرسة، تخلع سعاد وجها كالحا باسرا، وترتدي آخر بشوشا باسما. غدت تهتم بزينتها أكثر من ذي قبل، خصوصا بعدما توطدت علاقتها بالحسن، وكثر تبادل الهدايا بينهما، وصار كل منهما لا يغادر الآخر إلا ليفكر فيه ويغرق في أحلامه.

لم يكد الموسم الدراسي ينتصف حتى كان حبهما قد نضج واستوى على سوقه، ولم تعد السيارة وسيلة للعودة بسعاد إلى البيت فحسب، بل غدت وسيلة للسفر إلى بعض المدن القريبة، واكتشاف الحياة. جعلت سعادُ بعد ذلك تفكر بين وقت وآخر في أن تأتي على حياتها الزوجية هدما وتشرع في بناء أخرى جديدة مع الحسن، هذا الذي رأته وهبها قلبَه وعقله، و أقنعها بأنه مستعد للتضحية من أجلها ولَأْم كل صدع قد يُحدثه انفصالها عن زوجها. قال لها ذات استراحة والتلاميذ يقطعون الساحة جريا ولعبا:

- الجميل في هذه الحياة ما تفاجئنا به من صدف ..

ردت بمكر:

- ولكن الصدف غالبا ما تكون مكلفة
- ولو..

نظرت إليه متأملة مأخوذة بموجة من الانتشاء:

- الصدف معك على قدر جمالها قد تكلف المرء الحياةَ..
- هل الكلفة باهضة إلى هذا الحد ؟
- نعم و أكثر..
- كيف ؟
- أحبك ... ولكني زوجة وأُمّ .. وهذا يضعني بين مطرقة حبك وسندان و اقعي... و اقع الأسرة ومستقبل الابن..!

نظر إليها الحسن بمكر:

- إذا وهبتني قلبك، وكنت تحسين بمثل ما أحس به... فأنا أعاهدك على أن أتكفل بابنك..
- أنا أحبك ... ولكن في رأسي حروبا طاحنة... بعض العوالم التي تبنى وأخرى آيلة للسقوط

أخذ بيديها، جعل يمرر يده فوقهما، ثم قال لها:

- سعاد... ليس من الضروري أن يواصل الإنسان سيره على نمط واحد... ما دمتِ أخبرتني من قبل بأنك صرت تكرهين زوجك، وصرت تنفرين منه ومن كثرة أسئلته ومعاتباته.. فلِمَ لا تفكرين بشكل جدي في أن نبني معا حياة جديدة؟

أطرقت سعاد قليلا ثم قالت بعينين مائعتين:

- ويوسف .... وحده يشدني إلى و اقعي ويأسرني فيه..

- قلت لك لا تخافي... يوسف بالإمكان أن نرعاه معا في حالة ما إذا لم يطالب أبوه به.. وغالبا لن يطالب، سيفكر هو الآخر في زوجة أخرى وحياة جديدة... هذا زيادة على أنه يمكنه أن يرى ابنه ما بين فينة وأخرى...
- لا أخفيك... لم أعد مقتنعة بزوجي ... ولا بحياتي معه... وهذا ما يحرضني على المغامرة...
- إذا تشجعي قليلا... لِم تترددين في إخراج أحلامنا إلى الو اقع...
- الأمر على جماله مُحيّر وشاقّ...
- فكري قليلا... يمكنك طلب الطلاق منه، وأَعِدُك أن أتزوجك فيما بعد... ويوسف سأعتبره بمثابة ابني...

قام من الكرسي في اتجاه حديقة تتوسط الساحة، اقتطف وردة حمراء ندية وعاد بها إلى سعاد، قال لها فيما يشبه التخدير:

- سعاد... تفضلي... هذه الوردة فيها ألف كلمة، فلا تسقطي كلماتها على الأرض جراء تفكيرك المتواصل الذي لا أراه إلا حجرة عثرة أمامنا...

كان الوقت قد طال بهما في ضيافة العشق، تنبها بعد ذلك إلى أن فترة الاستراحة قد تجاوزت حدها المعلوم بكثير، ناديا على التلاميذ للالتحاق بالأقسام، ورددا في خاطرهما معا على سبيل الصدفة: على أبواب العشق قد تضيع الحقوق!

****

لم تزدد حياة سعاد مع زوجها إلا سوءا، كانت تسعى جاهدة إلى اختلاق مشكل يمكن أن تتخذه ذريعة لتطالب بالطلاق، ولكن الأستاذ محمد الذي كان يهمه مستقبل ابنه ونفسيته دأب على الصبر والتحمل، وكلما جرّته سعاد لخوض معركة أو الدخول في نقاش بائر لن ينتهي إلا بشقاق أو فراق إلا وخرج من البيت وتركها في ساحة حربها بمفردها. كان يعلم بأن شيطانا ركبها هذه السنة فصارت على ما هي عليه كثيرة التذمر، شديدة الانفعال، مضطربة الأحوال، لا يكاد يحدثها حتى تنفجر صارخة، ولا يكاد يمازحها حتى تعرض عنه وتقطع دابر الحديث معه. غدت حياتهما فارغة من الإحساس، وصارت قلوبهما متنافرة، ويوسف بينهما حياة ضائعة، ومستقبله في كف عفريت، أما الحسن فكان يبني آماله وينتظر يوما يُخرج فيه أحلامه من الغيب لا يهمه لا هذا ولا ذاك.

****

ذات ليلة حزينة، والمطر ينزل بغزارة في الخارج فيُسمَع لوقعه على النافذة صوت عنيف مخلوط بشيء من الكآبة، قالت سعاد لزوجها بعد نقاش حاد نجحت في استدراجه إليه:

- لم أعد مرتاحة... صارت حياتي معك جحيما لا يطاق.. الأفضل أن نفترق..

ولأن الأستاذ محمد، بلغ به الأمر ما يفوق صبره، قال ببرود كأن كلامها لا يهمه:

- كما تشائين...

وقعت هذه الجملة في نفسها موقعا جميلا، أحست بأنها نجحت في خطتها المُدبَّرة، ووجدتها بشارة يمكن أن تحملها للحسن في الغداة إعلانا على أن حياة ماضية تشهد نزيفها، وأن أحلامهما معا ستخرج عما قريب من رحم الغيب. أما الأستاذ محمد، فلا يدري كيف قضى تلك الليلة، ولا يكاد يتذكر الحوار الذي دار بينهما حتى تنقبض مشاعره ويعتصر الألم دواخله. قضى ليلته معانقا وساوسه وبدا له المستقبل شبحا مخيفا، وأبصر بأن حبل حياته الزوجية آخذ في الانقطاع... والتعويل عليه ضربٌ من العبث.

قضى الأستاذ محمد الليلة أو انقضت به وهو يتقلب على فراشه تحاصره الأسئلة وتعذبه الذاكرة، وكلما انتهى إلى أذنه شيء من شخير ابنه يوسف الذي كان إلى جنبه إلا وخَالَهُ صرخة غريق على أبواب العتمة يستنجد..! ولكن، مع إطلالة الصباح حاول أن يراوغ نفسه، ويذهب في ذهنه إلى أن كلام زوجته السابق لا يجب أن يؤخذ على حقيقته، ولا يكشف بالضرورة نواياها، وإنما هو جملة نطق بها شيطان الغضب على لسانها، لن تتوالى الأيامُ حتى يُقبرها الماضي، ولن تجد إلى الواقع سبيلا..!

****

لم يمر على نزاعهما إلا يومان حتى فاجأت سعاد زوجها بطلبها منه أن يصحبها للمحكمة لطلب طلاق اتفاقي، قال لها وقد خانته العبارة:

- أفعلا يا سعاد تودين الطلاق؟

ردت بشيء من الانفعال:

- نعم... قلت لك هذا من قبل..

- ولكن حديثنا كان متأججا لحظتها ..لم أعتقد أنك تتحدثين بجد..
- سي محمد.. لقد قلت لك بأنني لم أقوَ بعدُ على العيش معك...
- ولكن ليس هناك مبرر.. بالله عليك اشرحي لي...
- ليس في الأمر ما يستدعي الشرح... نفسي تنقبض كلما دخلت البيت... حياتي معك صرتُ أذوق فيها معنى الجحيم...
- كل مشكل له حل.... والطلاق آخر ما يُفَكر فيه... آخر الدواء الكي... هذه حكمتك التي كنت تكررينها ذات زمان على مسامعي...
- أسي محمد ... اعذرني... نفسيتي لا تطيق فوق هذا... والطلاق صرتُ أراه هو الحل...
- هل فكرت جيدا...؟ هل تعرفين أي جحيم تنوين إلقاءنا فيه؟
- فكرت.... شرع الله الطلاق كما شرع الزواج...
- ولكنه أبغض الحلال إلى الله..

قالت متذمرة من حديثه الذي شعرت به كَيَدٍ تقبض على رقبتها وتحاول خنقها:

- أف... إذا رفضت أن نقوم بطلاق اتفاقي .. فسيكون طلاق الشقاق هو الحل...

قالت الجملة وحملت حقيبة يدها الصغيرة في اتجاه الباب، تبعها محمد بخطوات متسارعة، جرها من كتفها ثم قال لها فيما يشبه الاستعطاف:

- سعاد... وما شأن يوسف... نتركه لغيب لا نعرفه

أحست بالجملة تتوغل في قلبها كسهم حاد... أردفت قائلة:

- يوسف سأرعاه... وسيزورك مرارا...

قال وهو يغالب الدموع:

- سعاد... أنا أرغب إليك في التأني... أنا مستعد لإصلاح ما يبدو لك عيبا فيّ.. مستعد لأن أحقق لك ما تريدين...
- ليس فيك أي عيب... العيب ربما في هذه النفس التي تسكنني... لم أعد أجد راحة في حياتنا معا..صدقني..
- سعاد.. حاولي أن تركزي قليلا.. إذا كان الأمر متعلقا بالمال فاحتفظي بر اتبك الشهري لنفسك ومستعد لأن أهبك راتبي كله تصرّفي فيه كما تشائين... فقط، لنحافظ على عشنا الصغير...
- محمد... قلتُ لك لا أرغب في الاستمرار معك... ليواصل كل منا حياته بمفرده...

أنهت كلمتها وأنهت بها شريط أمل كان يداعبه محمد في نفسه منذ أيام، فتحت الباب ثم انصرفت، أما هو فرمى برأسه فوق الباب، بعدما رمت هي حياتهما على الأرض، وأرسل دموعا حرى فوق خده المحزون، وفي الصدر غيمةٌ بلون الرماد.

****

ذات مساء، مع حلول الساعة السادسة والنصف، عاد الأستاذ محمد من عمله ليجد بأن البيت تطبعه فوضى عارمة، ووجد بأن أشياء كثيرة تغيرت أماكنها. فتح فمه مندهشا ودقات قلبه تتسارع في صدره الهش، تفقد الغرفتين والمطبخ والصالون ليجد بأن سعاد قد فعلتها حقا كما صرحت له... لقد جمعت متاعها وأخذت بعض الأثاث الذي كانت قد اشترته من مالها الخاص وتركت البيت منذورا للريح. لقد فعلتها حقا، لم يكن يتصور أنها ستتجرأ إلى هذا الحد وستقوى على الوفاء بكلمتها. كان

يأمل أن تعود إلى عقلها أو يعود لها، كان يتمنى أن تنظر إلى الأفق ولو قليلا لتعرف بأن ما تقدم عليه لا مبرر له ويوسف سيكون الضحية الأولى...

تفقد أرجاء البيت مرة ثانية، سار هنا وهناك كالأحمق، هتف بينه وبين نفسه بكلمات فارغة من المعنى تثير الشفقة وشيئا من الألم... لم يصدق عينيه، حتى ملابس ابنه ولُعبه وأشياء أخرى من ماضيه الجميل لم تبقَ ... لقد خرجت سعاد، وأخرجت معها تاريخا بأسره ولم تترك له في البيت إلا الشق المجروح من الذاكرة، من تاريخهما المشترك، من حياة جميلة، هادئة، عادية، لا يدري أي إعصار هذا حل بزوجته فصيرها عفريتا فقير العاطفة أعمى القلب يابس الإحساس أتى على حياتهما تدميرا...!

ألقى بجسده المنهك على سريره، تسمرت عيناه في ساعة الحائط التي تُسقط بحركة عقاربها أجزاء عمره. تخيل حياته سائلة على الحائط كدمعة حارة تكوي.. جمع كفيه وشبك أصابعه ووضعها خلف رأسه، أرسل تنهيدة عميقة كأنما تقتبس حرارتها من نار متقدة في عمقه، في شرايين قلبه. أي شيء يفعله ليسترد زوجته، هو الذي لم يترك باب أمل إلا طرقه، ولم يترك حكمة ولا حجة إلا عرضها بين يديها، ولكنها استماتت على رأيها، ولأول مرة وجدها تصر إصرارا زائدا على معاني الإصرار... ألاّ يبدأ الإنسان حياة زوجية أفضل من أن يبدأها ثم لا تمر عليها إلا سنوات قليلة حتى يصيبها الشلل ويقتلها الهوى والعمى...!

غرفة النوم، المطبخ، الصالون، غرفة الجلوس... أماكن صار يسمع لها نحيبا في دواخله الباكية، خالها عيونا تسيل بالدموع، قرأ فيها تاريخا بأكمله، قرأ فيها المرارة مسطورة بحروف الخيبة. البيت يختزن ذاكرةَ حياة زوجية في جدرانه لو أن هذه الجدران تنطق... يختزن ربيع هذه الحياة وخريفها، ولكن

المشهد انتهى عند الخريف... مات الربيع ليحيا الخريف! ما أقسى الخريف حتى في الطبيعة، تتعرى الأشجار وتعلن تبرجها السافر، وتُسقط أور اقها، تُسقط أجزاءها، تُسقط ذاتها..! تتعرى الأشجاروتصبح السماء بحلة رمادية، وما بين غفلة وغفلة، تبكي السماء ...! للإنسان كذلك خريفه، ولهذه الحياة الزوجية خريفها، لا أرى بعده إلا شبحا وغيمة باكية وتيارا من الذكريات الجارفة التي تأتي على القلب فتنخره نخرا... وتجعله كخشبة يابسة مجوفة لها خُوار.

"الطلاق" عنوان قصة تافهة، أو موضوع لكتاب، أو اسم لفيلم على التلفزيون... لم أتخيل يوما أن أعيشه، أن أصير طرفا فيه. يا ليتها قدمت لي سببا واحدا، عللت لي به هذه الهزة الزلزالية التي شقت عواطفها و أفكارها، يا ليتها تركت لي في يدي ولو حجة واهية، يا ليتها تركت لي ولو مثل هذه النقطة السوداء الصغيرة البادية على الجدار... يا ليتها تركت لي في مثل حجمها ذريعة أو كذبة، لقد صارحتني بأنها فقط لم تعد راغبة في حياتنا معا... لماذا؟ ليست تدري، أو بالأحرى لستُ أدري... أما هي، فمادامت أصرت إصرار إبليس في ألا يسجد لآدم فما عدتُ أصدق بأنها لا تدري... في رأسها دنيا كاملة بجِنّها وإنسها، الله وحده يعلمها، وتصديقها في زعمها استمرار في السذاجة، وترسيخ لأقدام البلادة في ذاتي المتصدعة، النازفة حُزنا قاتلا هذا المساء... لأول مرة أكتشف بأن الصراحة تجرح، تغرس الكآبة في القلب كأشجار الزقوم، طلعها كأنه رؤوس الشياطين. يا ليتها تصدقت علي بكذبة على قدْر خيانتها وسذاجتي أداوي بها علتي وأحاول أن أبرر لنفسي سبب نكبتها، سبب خيبتها التي لم تخطئها.

يراقب عقارب الساعة الراقصة على الجراح، يسافر عبر سُفنها التي تدور إلى غياهب ذكرياته ودواخله، في الذات نغمة الجنازة، وفي الذاكرة صور يموج بعضها في بعض، والماضي عنيف يجرح وقد يقتل، والحاضر لعنة دبرتها يدٌ شيطانية. يتذكر يوسف...صراخه، بكاءه، ضحكه، مداعباته له.. تمتلئ عيناه بالدموع ويستسلم في الأخير لبكاء موجع يهتز له صدره وتسيل على نغمته الحزينة حياة أنفق جهده وتفكيره ليصنعها... ليبنيها لبنةً لبنةً، قبل أن تأتي يد سعاد فتبطش بها بطشة كبرى! خرج من الساعة التي كان قد تسلل منها إلى ذاكرته وجراح قلبه، ثبت عينيه في عقاربها، وجدها الثانية بعد منتصف الليل، لم يدر كيف مر هذا الوقت كله وهو جامد فوق سريره لا يتحرك منه إلا داخله الذي تعتمل فيه كوارث الطبيعة بأجمعها، بركانها وزلزالها وإعصارها!

قام من مجلسه، تأمل في المرآة وجهه الذي غادرته ملامحه، تنبه في الأخير إلى ورقة في جانب السرير، أخذها بيد معروقة، قرأ فيها (لقد اكتريتُ بيتا آخر، وطلبت الطلاق في المحكمة). تجمدت نظرته أمام الجملة، تذكر من خلالها أول جملة كتبتها له ذات زمان عندما رأته فأُعجبَتْ به (لقد أحببتُك، ورجوتُ في خاطري أن نتزوج)... يا لفرق ما بين الجملتين، أبصر بأن حياته ليست في حقيقتها إلا جملة بين قوسين، وليس هو إلا همزة وصل، أو وصلَ "همزة"!...

****

كانت الليلة مقمرة، وفوق الهضبة البعيدة عن المدينة، كانت سعاد والمعلم الحسن يصنعان شيئا من حيهما. الحياة فوق هذه الهضبة جميلة، وجلوسهما معا، جنبا إلى جنب نعيم لا يصدق، وقرار الطلاق حل كان بعيدا فقربتْه الشجاعة وجرأة تولدت من رحم الخيانة. أخذ يدها بين راحتيه وتأمل انعكاس الضوء فوق ملامحها الجميلة، قال لها وقلبه يرفرف سرورا وغبطة:

- لا أصدق ما وقع ... ظننتُ حلمنا خيالا يُستبعد تحقيقه..

ردت وهي تتكئ برأسها على كتفه:

- الحب الصادق يتحدى الو اقع ...
- كنتُ سأموت حسرة لو أنك ترددت عن فعلتك أكثر، أو قررت التمسك بزوجك والتفريط في مشاعرنا الوردية..
- لقد ضحيتُ من أجلك كثيرا...

قال ممازحا وهو يمرر يده على شعرها:

- ألا أستحق ذلك...؟ لقد أحببتُك بصدق.. ما كنتُ أتخيلُ أن تكون لك هذه القوة التي فتحتِ بها قلبي و اتخذت لك مكانا فيه بدون إذن...

أجابته وهي تستشعر جمال اللحظة وتستعذب يده التي تسير فوقها ناعمة:

- ما كنتُ أعلم ذلك... ظننتُ أنني أعيش حبا من طرف واحد في بداية الأمر... تصور كنتُ أنصت إليك و أنت تدرس التلاميذ... كنتُ أجد راحة عارمة و أنا معك في السيارة..

طبع قبلة على خدها ثم قال:

- لا أخفيك يا سعاد ..أحس بأنني الآن فقط أستحق الحياة... ما معنى أن تعيش وليس في قاموسك أنثى تحبك..

- عزيزي... الحياة بدون حب ثلج يقتل ببرودته...
- متى نتزوج إذا يا عزيزتي؟ أنا لا أقوى على الصبر... أريد أن أعيش إلى جنبك تحت سقف واحد، أريد أن أستظل من فيح هذه الحياة تحتك...

ردت بدَلَال:

- لم يبق لانتهاء العِدّة إلا قليل وبعدها يكون لنا ما نريد...
- ما أطول الوقت، عندما ننتظر الأمور الجميلة نحس الوقتَ معطوبا لا يتحرك، أما البلاء فيأتي مسرعا قبل أن يرتد إليك طرفك..
- عافانا الله من البلاء... أحلم معك بمستقبل جميل... ما أجمل أن تضحي من أجل قلبك.

نهضت سعاد من الهضبة و انتصبت و اقفة وقالت:

- لنقم يا حبيبي... قد يستيقظ الصغير ولا يجدنا في السيارة ويشرع في البكاء..

سارا في اتجاه السيارة، وفي السماء غيمة حجبت نور القمر..!

****

غدت الحياة عند سعاد زهرة أخذت تنتعش وتتفتح، ور ائحتها مسكرة، وقرارها الذي اتخذته فانفصلت عن زوجها شجاعة مازالت إلى يومها هذا تتساءل عن سرها ومن أين لها بها. لم تعهد في حياتها إلا التردد والانتظار مقدارا وقتيا يشيب فيه الزمن أمام القرارات المصيرية، ولكنها في هذه المرة غدت خلقا آخر، لقد برز لها منها ما لم يكن لها في حسبان. تسترجع ذاكرتها، لم تكن تعلم أن إعجابا وقع ذات يوم بقلبها سيتطور بشكل مفاجئ إلى حب بر ائحة ملغزة، ينقلها إلى تفكير آخر وإلى حياة أخرى فيها

الربيع الممتد والشمس التي لا تفارق كبد السماء. تضخم إحساسها بالحياة مذ سلمها المحامي الحكم بالطلاق، أحست أن قيدا كان يشد الفرحة في ثنايا قلبها قد تكسر، أحست أن حجابا يغطي عنها مستقبلا مشرقا ظلت ترسمه بخواطرها قد زال بشكل نهائي ولم يبق لها إلا أن تنتظر نهاية مدة عدتها لتقترن بالحسن، هذا الشخص الذي لا تدري من أي أبواب قلبها دخل.

أما بيتها الجديد فغدا جنة فوق الأرض، تدخله متى شاءت وتخرج منه متى شاءت، و ابنها وحده كفيل بأن يملأ عليها المكان ويشعرها بالحياة داخله. أما الليلُ فسهرٌ دائمٌ على أبواب العشق، تقضي أغلبه معلقة إلى مكالمة مع عشيقها الذي لا تكل منه ولا تمل. لم تكن تعلم أن الحب يأسر إلى هذا الحد، حتى في اللحظة التي أحبت فيها زوجها السابق لا تذكر أنها تعلقت به بهذه الصورة الغريبة التي لابد فيها شيء من سحر الحب ومكره. تتعجب لهذا الوقت العريض الذي صار يُنفق كله في الكلام المكرور الذي تستلذ به وبقائله. في الحديث مع المعلم الحسن نشوة ساحرة، واللقاء به في المدرسة متعة دائمة، والسمر معه فوق الهضبة وقت تقضيه بطعم العسل وزيادة...! أما يوسف، فلا تراه تأثر بما وقع ولا بزيارة أبيه المتقطعة كلما طرق بابها ليصحبه بعض الوقت ثم يعيده إلى حضنها.

كانت سعاد تعد الوقت بعقارب قلبها، تنتظر الأيام القليلة التي تصبح فيها مِلكا للمعلم الحسن ويصبح مِلكا لها. كانت تعلم بأن هذا الشخص يهيم بحبها وكم كانت تسعد بذلك، فهداياه إليها متواصلة، واحترامه لها كبير، وعطفه على يوسف مرارا يظهر لها بأن قلبها لم يخطئ إذ ركع أمام حبه واستمات على التعلق به رغم بعض الخسائر التي جرها هذا الحب وراءه، ولكنها لا تعدها خسائر عندما تأخذها نشوة الخيال، تعد الأمر تضحية من

أجل الحياة، ولا حياة بدون تضحية. ثم أي شيء تخاف، ومعها القلب المحب، وهي واعية بطريقة تربية ابنها والحفاظ على سلامته والسهر لسد حاجاته.

تسبح سعاد في عوالمها، تنتعش برذاذ الخيال وتستظل بالحب المُسكر. غدت الحياة عندها مشرقة بليلها ونهارها، والحزن بالنسبة إليها قدرٌ نسيها إلى الأبد. كانت تتذكر دائما قبل أن تستسلم للنوم بعد مكالمة هاتفية تطول أكثر من الوقت! تتذكر يوم اتصل بها المعلم الحسن، وكان مولعا بالشعر، وما إن ضغطت على الزر حتى قال لها شيئا مما يحفظ لنزار قباني:

- آلو...
- يا سيِّدتي:

كنتِ أهم امرأةٍ في تاريخي
قبل رحيل العامْ.
أنتِ الآنَ.. أهمُّ امرأةٍ
بعد ولادة هذا العامْ..
أنتِ امرأةٌ لا أحسبها بالساعاتِ وبالأيَّامْ.
أنتِ امرأةٌ..
صُنعَت من فاكهة الشِّعرِ..
ومن ذهب الأحلامْ..
أنتِ امرأةٌ.. كانت تسكن جسدي
قبل ملايين الأعوامْ..

أسكرتها الكلمات، وجدت فيها طعما نادرا، وجدت بأن كل حرف من هذه القصيدة على لسان حبيبها يعدل دهرا من السعادة بأكمله، والدهر بعشر أمثاله. قالت له بصوت مدلل:

- لماذا تقتلني كل يوم بحبك...

- حتى أستبقيك لي وحدي... ولأنني أريد قتلك بوردة الحب لن أواصل مكالمتي معك قصدا، سأتركك تعيشين الليلة مع صدى هذه الكلمات... تَذوَّقيها، تأمليها بقلبك، وسجليها على جدرانه، واحتفظي بصدى الصوت في عمق مسامعك... إنني أحبك..
- كم أنت مجنون أيها الأحمق...

****

مرت الأيام متسارعة، وحب العشيقين لبعضهما البعض لم يتقادم بعد، ولم يبق على إعلان الزواج إلا أسبوع واحد. كانت الأمور تسير على ما يرام، وكانت الترتيبات سائرة على الخط الذي رسمته سعاد، إلى أن جاءت تلك الليلة مكشرة عن أنيابها، ظلت سعاد تنتظر أن يتصل بها المعلم الحسن كعادته، لكن شيئا من ذلك لم يقع. أخذت هاتفها وجعلت تتصل به ولكن لا أحد يرد. أحست بشيء على هيئة الظلام يتكتل داخلها، وشعرت بأن قلبها كأس يمتلئ بساعات الانتظار حُزنا بمذاق مركريه.

تشكلت الأسئلة أمام هواجسها المخيفة حزمة سوداء، جعلت تتقلب ذات اليمين وذات الشمال وتقطع أرض الغرفة ذهابا ومجيئا. لم تكن تدري مسكن الحسن بالضبط، فهو دائما كان يوصلها بسيارته إلى بيتها قبل أن ينصرف في حال سبيله، لو كانت لها دراية بمقر سكناه تحديدا لغامرت بنفسها وخرجت في هذا الليل الكئيب لتبحث عنه، فهو أملها الوحيد الذي علقت عليه باقي حياتها، ولا شيء يمكن أن يبقيها في مكانها تنتظر أو يثنيها عن عزمها للبحث عنه، ولكنها للأسف لا تدري أن يسكن بالضبط، وحتى زميلتها سكينة التي كانت تعمل معها اتصلت بها مرارا ولكنها وجدت هاتفها غير مشغل. أيمكن فعلا أن يكون قصد عدم الاتصال على سبيل المزاح لينظر

مدى تعلقي به؟ هل نام؟ ليست عادته أن ينام دون أن يتصل بي، أليس هو الذي قال ذات يوم: (لا يمكنني أن أنام دون أن أسمع صوتك، بصوتك وحده يطيب النوم وتحلو الحياة)... لماذا إذا لا يرد؟ هل خرج ونسي الهاتف في البيت؟ هل حدث له مكروه و أنا لا أدري..؟

شيء ما في صدرها انقبض، أحست بأن زاوية ما من قلبها تهشم... دبت في جسدها برودة لم تدر طبيعتها خاصة بعدما طال بها الانتظار أكثر من متوقعها. يحاصرها الوساوس الذي لا يخنس من جهة، ويطل عليها المستقبل كشبح من جهة أخرى ثم يختفي، نظرت إلى ولدها الذي نام باكرا كعادته... راودتها أسئلة كثيرة بمذاقات مختلفة وأحاسيس متضاربة، وبدت لها الغرفة مخيفة. أيمكن أن يكون غير رأيه أو اكتشف ما يثنيه عنه؟ هو نفسه قال لي بأنه لا يمكن أن تمر ليلة دون أن يهاتفني، وإذا حدث هذا فلابد هناك أمر و اقع... أيمكن أن يكون في كلامه ذلك تلميح إلى غدر.. أيمكن أن يكون جعلني أضحوكة؟

تفر من خواطرها إلى الحمام، تغسل وجهها، تمرر الماء البارد على شعرها المتطاير، تحاول أن تتنفس جيدا، تسعى إلى التغلب على وسواسها فهذه أول مرة لم يتصل بها، ولا يمكن بحال أن يتضخم على إثرها الوسواس إلى هذا الحد.. لاشك أنني بالغت في الأمر وأعطيته فوق ما يستحق.. !

كمن يشق طريقا في البحر استطاعت بعد جهد أن تتغلب على بعض وساوسها، أن تعود إلى ذاتها بعدما غادرتها في اتجاه أسئلتها المُتعبة، في اتجاه منطقة في ذهنها تملؤها الهلوسة والوسواس وشيء من قتامة النفس. تركت وجبة عشائها جانبا دون أن تتناولها، لم تعد لها رغبة في الأكل، توجهت صوب الشرفة رفعت رأسها للسماء وسألت الله تعالى في سرها أن يكون حدسها قد أخطأ هذه المرة. عادت بنفس مثقلة وخطوات متباطئة إلى غرفة نومها،

حاولت أن تسلم نفسها للنوم في انتظار حلول الصباح والذهاب إلى المدرسة وحينها ستعرف كل شيء.

****

بعد ليلة طويلة تعطل فيها الوقت وتباطأ، توجهت سعاد في صباح مُظلم إلى المدرسة، وعلى عكس عادتها، دخلتها مدفوعة بهواجسها و انتظاراتها، توجهت مباشرة صوب قاعة الاستراحة على أمل أن تجد المعلم الحسن كما هي عادته ينتظر لقاءها قبل الالتحاق بالقسم، لكن الأمر كان على غير متوقعها، المعلم الحسن غير موجود، وجدت زميلتها سكينة، ولم تجد بدا من سؤالها، قالت لها:

- صباح الخير سكينة
- صباح الخير..كيف أصبحت
- الحمد لله... ألم يأت الحسن؟
- لم يأت... ولم يبق لحلول الثامنة إلا دقائق قليلة... ليس من عادته أن يتأخر
- معك حق..

انصرفت إلى الساحة تر اقب من بعيد، على أمل أن تظهر سيارته قادمة في اتجاه المدرسة، ظلت على ذلك الحال حتى بلغت الساعة الثامنة والنصف، لم تستطع صبرا ولا هي قدرت على تقديم الدرس لتلاميذها الذين ظلوا ينتظرون الفراغ في قسمهم. توجهت صوبهم، أمرتهم بالانصراف وفي داخلها قيامة بحشرها ونشرها. توجهت بعدها إلى قسم المعلمة سكينة،

طرقت الباب وبعدما فُتح قالت لها سعاد مرتبكة وعلامات الحيرة بادية على وجهها:

- أعتذرسكينة، من فضلك هل تعرفين أين يسكن المعلم الحسن؟

ردت بانفعال واضح :

- في حي النور، قرب الشارع المؤدي للحديقة ..

ثم استدارت وأغلقت الباب. أما سعاد، فأسرعت مهرولة في اتجاه حي النور، وفي قلبها ألف سؤال وحيرة بعمق البحر، لا تدري أفعلا هو حي النور، أم أن هذا الحي لا يخبئ لها إلا الظلمة. كانت تتصل به طيلة الوقت الذي انتظرته في المدرسة ولا يجيب، لابد أن شيئا ما حدث، ولاشك أن ما حدث لا يَسُر، ولا يمكن أن ترتاح له هذه النفس التي يعذبها المجهول.

بعد مدة وجيزة استقلت فيها سيارة أجرة صغيرة توقفت في الشارع المؤدي للحديقة من الجهة اليمنى لحي النور، نزلت وعيناها تنظران هنا وهناك، وجدت طفلا في ربيعه العاشر أمام منزل، سألته في لهفة:

- وَلْدي... هل تعرف في أي منزل يسكن المعلم الحسن..

قال بتباطؤ وهو مازال مندهشا أمام وجهها الذي كادت تسقط ملامحه:

- المعلم الحسن...المعلم الحسن...آه تذكرت... هل تقصدين المعلم الذي يدرس في مدرسة الانبعاث؟

- نعم

- يسكن قرب البقال في الزنقة المقابلة لهذه التي نحن فيها...

اتجهت تجري على قلبها وبين يديها نفسٌ مرتجفة وعقلٌ شارد. ما إن بلغت الزنقة ودارت يمينا في الاتجاه الذي يؤدي للبقال حتى وجدت مجموعة

من الناس متحلقين حول المنزل.. لاشك أن الحسن قد حدث له مكروه وإلا فماذا يفعل هؤلاء هنا؟ ما إن وصلت حتى وجدت مدير المدرسة هناك، سألته ناسية أنها انصرفت من المدرسة بدون إذن:

- السيد المدير هنا ... ياك لباس... أشْ و اقع؟

التفت إليها وقد احمرت عيناه وحبس في مقلتيه عبرات ساخنة:

- إنا لله و إنا إليه راجعون... توفي المعلم الحسن... اختنق بالغاز وهو يستحم... ولولا الجيران الذين تنبهوا لأمره لظل في بيته ميتا لا أحد يدري خبره...

نزل عليها الخبر كصاعقة، صارت الدنيا في عينيها قطعة من الجحيم، والسماء تدور والأرض تمور، والأشياء البادية أمامها خيال يشبه الحقيقة، تتداخل المنازل فيما بينها...يصعدُ الشارعُ ثم ينزل، والناس أشباح بألوان الطيف، والرؤية تتضح ثم تكسوها أمواج الدموع، والقلب يعيش لحظة قاسية لم يذق غِسْلِينها من قبل. تواردت في خاطرها أفكار باردة كالموت بلون أسود قاتم... فترت شفتها عن ابتسامة بملامح البكاء، جعَلت ترى الحياة أضحوكة ساخرة، والمستقبل قصور رمال تنهار قلاعها... ومجدا مجدا قديما، ويوسف صورة جامدة.... والقدر لا يرحم، والحلم زهرة ميتة...!

أحست سعاد بأن الخبر طعنها في شريان حياتها، شَل لسانها و أفقدها القدرة على الكلام، وحدها العين التي تسيل أنهارا على وجهها الشاحب تكتب مرثية الأحزان.. تسرد شيئا من عتمة النفس الواهية التي تقبع في جوف طينٍ متشقق. تراءى لها الزمن القادم نارا ملتهبة تجري صوبها أو تنتظرها، وجعلت ترى الحاضر زمنا معاقا مشوه الوجه مريض الذاكرة، رأت لحظتها سكونا يسبق العاصفةَ... عاصفة بحجم مائع لا تدري طبيعته ولا تتوقع فداحته...

لم تتحرك من مكانها الذي تسمرت فيه كعمود إلا بعدما سمعت صراخ رجل يأمرها بأن تفسح له الطريق ليمر بسيارته.

غادرت حي النور بمعاني الظلام... غادرته منسوفة الأحلام خائرة القوى منهكة الروح، تبدت من بعيد وهي تقطع الشارع الكبير، تبدت كجثمان بُعث من قبره ولما ينفض عنه آثار الموت ور ائحة الفناء... قطعت الشارع وفي النفس أمواج حزينة تتلاطم على جدران قلبها المتصدع. لقد تركتني لهذه الحياة بمفردي، غادرتني دون أن تُعْلمني... غادرتني دون أن تُلبس وجهكَ علامةً أتبين من خلالها بأنك ذاهب إلى هناك حيث يبطل الزمن ويتعطل الوقت... غادرتني وفي يدك قلبي وحُلمي وزهرةٌ نوينا صادقيْن أن نسقيها شيئا من حُبنا... أشهد أنني أحببتك بصدق، لقد رفعتَني إلى درجة عالية من الإحساس غدوتُ فيها فراشة تزهو بنفسها في يوم ربيعي... ولكن المشكلة أنه على قدر ما رفعني حبك الشفاف أوقعني موتك المفاجئ، فآلمني السقوط وتكسر ما بداخلي، ولعل ما بقي من عمري لن يكون إلا سعيا لجمع أشتاتي وتضميد جراحي...

****

تصعد السلم بنفس هابطة وعقل ساهم، تتجه بجسد ضامر ومشية متباطئة صوب الشرفة، ترتفق عليها، ترسلُ عينيها في أرجاء المدينة الصامتة، تتأمل نجوم السماء وفداحة الظلام، تتعثر نظراتها بقامات العمارات النائمة ثم تواصل تجوالها بعينيها يمنة ويسرة مستهدية بمصابيح الشارع الممتد أمامها. غدا الليل عندها كائنا زمنيا تبصر في ظلمته ما يفوتها

في النهار، تسمع إلى دواخلها، تسترجع أزمنتها، واحدا واحدا، تتسلق صدى أفكارها، وشيئا من الأمل المخدوش، المجروح، السائر رويدا نحو الفناء.

هذه الشرفة، مكان مقذوف في الهواء عاليا، خارج عن جسد العمارة، تقذف فيه سعاد أحزانها وتخرج فيه من ذاتها ماشية على ماضيها هونا حتى لا ينجرف بها، أو يهلكها، أو يقتل بقايا الحياة فيها. لقد وجدت سعاد في هذه الشرفة علوا تطل منه على ذاتها، تقرأ بعضا من أقدارها، تسيل فوقه ألما وتنتحر نفسها فيه كلما حل الفجرُ ورفع الليل ستاره على الفضاء و أبقاه مسدلا على أجواء نفسها.

في هذه الليلة الصامتة، حيثُ تنام الأشياء إلا المعاني، تيقظ الإحساس في سعاد مجددا، وتضاعف شعورها بلحظتها، فهرعت إلى الشرفة مرة أخرى لتعتق نسمة الروح في داخلها بعدما حاصرها اختناق فوق فراشها تحت ضغط الضمير، وعذابات الزمن الحاضر. فاضت بها حرارة الغرفة الباردة إلى الشرفة، أحست حينها بوقاحة حياتها، استشعرت عذاب الزمن وقساوة الوقت...! كلما تذكرت أنها طلبت الطلاق من زوجها واستماتت على رأيها حتى كان لها ما تريد إلا وتخيلت نفسها في كابوس تنتظر لحظة يقظتها... لم تصدق أنها أقدمت على فعل لم تقرأ له حساباته، ولم تفكر فيه بعقلها، و إنما نظرت إليه بطينها... كلما تأمَّلَتْ ملمحا من حياتها وقرأت لحظتها السخيفة إلا ووجدت في صدرها من الأسى أكواما متراكمة، ووجدت حزنها كومة تبن متعالية: الحياة فيها إبرة، والعثور عليها ولوج في سم الخياط وضربٌ من المستحيل!!

يعود بها الأسى إلى الغرفة، تسير الهوينى إلى سريرها، تتأمل وجه ابنها يوسف الغارق في نومه، تتأمل براءته المرسومة على ملامحه، ابتسامته الموضوعة على وجهه الوسيم، فتسيل عبراتها ساخنة، وتعض على يديها تود لو أن لها من القدرة ما يرجع الزمن الفائت فتتجنب ورطة صنعتها لنفسها، وتتدارك زلتها، وتعيد ترتيب أشيائها وتتقيأ حُبا عاث داخلها فسادا حتى دفعها إلى وخز شوكة السم في حياتها...

تستلقي على سريرها البارد، تمرر يديها على شعر ولدها النائم إلى جنبها، تسمر عينيها في السقف، تطل منه على مستقبلها، فتراه غائما، مائعا، تتساءل أي شيء ينتظر ابنها، أي إحساس سيركب نفسَه عندما يصل المرحلة التي يدرك فيها أن والديه انفصلا عن بعضهما البعض... تتساءل أي شعور سَيُكنّه تجاهها إذا علم بأن الخطأ كان من صُنعها، أن الطلاق كان من تدبيرها، أن القرار كان نتيجة شهوة اعتملت داخلها، نتيجة طمع أغمض عينيها ... وهي تستشرف أيامها المقبلة وتخمن في ما يطويه الزمن تحت ثوبه المخيف تنهدت وأغمضت عينيها الدامعتين راغبة في استكمال نوم لم تبدأه!

****

إلى الجدار الخلفي للقسم أسندت سعاد ظهرها بعدما خرج التلاميذ للاستراحة. لم يبق منها إلا اسمها وذاكرة مقروحة تأكل من أغلب وقتها بعدما أكل التفكير نضارتها والتهم آثار الجمال فيها فتهاوت من علياء أنوثتها مترهلة ذابلة. تغمض عينيها في سهوم، تسير في أرجاء ذاتها... لم تكن تعلم أن حبها للمعلم الحسن كان يخفي وراءه حربا ضروسا، وأنه بقدر ما شيد من آمال في قلبها صار اليوم يهدم ما تبقى من تماسكها. تتعجب كيف فاتها أن تتنبه

منذ البداية للخيط الرفيع الذي يفصل بين الحب والحرب وتعلم بأن لا فرق بينهما على الحقيقة إلا الراء، هذا الحرف الواحد القابع في الوسط، في الداخل، كالفخ ينتظر من يخطئ القراءة فيسقط صريعا ويقضي ما تبقى من حياته حيا معطوب القلب يحمل أشلاء عمره بين يديه. ولأنها لم تنظر حينها للحياة إلا من زاوية قلبها، ها هي الآن تُسيل أوقاتها على عتبات الماضي يؤلمها العقل ويؤنبها الضمير وكل أملها أن تقترن بالأستاذ محمد من جديد...أن تعيد مياه حياتها معه إلى مجاريها. وهل يمكنها ذلك؟ أو هل مازال في الزمان والإمكان متسع لذلك؟ ذلك ما لا تعرف له جوابا...

- أللا سعاد..

فتحت سعاد عينيها على صوت زميلتها سكينة التي جاءت لتفتض خلوتها:

- أهلا ... عزيزتي سكينة
- ما بك ... وجدتك ساهمة منذ أيام... تجنبت محادثتك لعلمي بأن موت الحسن قد أثر فيك ..ولكني وجدتُ الأمر زائدا عن الحد فخشيت أن تظلي هكذا و اقفة على مشارف الهلاك ...

ردت سعاد وقد ترقرقت دمعتان ساخنتان في عينيها:

- شكرا لك عزيزتي.... في صدري أشياء كثيرة لا تعرفينها... ولي مع الحسن قصص لم تقرئيها بعد... والواقع الذي أحياه حاليا معقد حقا أكثر من العقد نفسها...

فتحت سكينة فمها في ذهول، ما هذا الكلام الذي تسمع.. جلست إلى جنب زميلتها المتهالكة وقالت بفضول ممزوج بشيء من الفزع:

- لم أفهم عزيزتي... أخبريني..

اعتدلت سعاد في جلستها وقالت:

- ما سأقوله لك قد يبدو غريبا ولكنه الو اقع... المعلم الحسن لم يكن كما تظنين زميلا في العمل فحسب، كان إلى جنب ذلك مشروعا للزواج..

قالت سكينة مستغربة:

- ولكنك متزوجة .. لم أفهم
- هذه هي المشكلة أن الأمر لا يُفهم رغم أنه و اقع متجسد... لن أخفيك شيئا يا سكينة... أحببت المعلم الحسن كثيرا، أعجبت به كما لم أعجب برجل من قبل، وهذا جعلني أغامرو أقامر...
- ولكني إلى حد الساعة لم أفهم... سعاد ألست متزوجة؟
- كنتُ كذلك، ولكني بمجرد ما وقعت في حب المعلم الحسن، وتأكدت من أنه هو الآخر يحبني حتى جعلنا نفكر في حل يفصلني عن زوجي ونتزوج...
- وهل امتلكتِ قدرة تمكنك من الانفصال عن زوجك وتعريض ابنك للمجهول...
- صدقيني يا سكينة، والله لم أكن لحظتها أفكر أو أبصر...كنت في حالة غريبة، تلخصت فيها أمانيّ في الزواج بالمعلم الحسن... وكنتُ أنانية حقا لأنني لم أُعِرولدي يوسف ما يستحق من تفكيروعناية...
- وكيف تقبل زوجك الأمر؟
- لم أخبره بحقيقة الأمر ولا بمشروعي الذي أبنيه في لحظة تقودني الأماني الكاذبة ولوعة الحب... حاولت أن أستفزه أكثر من مرة لأثير غضبه، عله يكرهني، عله يفكر في تطليقي، ولكني وجدته حكيما، صبورا... وعندما نفد صبري وهيجني الحب أكثر من أي وقت آخر

أخبرته ذات يوم بأنني لم أعد راضية عن حياتنا الزوجية وأرغب في الطلاق... أذكر أنه صدم لحظتها، دارت به الأرض ولم يعرف أهو في الحقيقة أم في الحلم... ولكن عندما بادرته إلى المحكمة وطلبت الطلاق وغادرت البيت لأكتري بيتا آخر علمَ حينها أن الأمر ليس كلاما عابرا...

- قبح الله الحب...
- لا يمكنك أن تتوقعي موجة الفرح التي اعتلتني يومها وأنا أتسلم القرار القاضيَ بالطلاق...فرحت كثيرا، وحاولت أن أقبر أصواتا سمعت بعض همهماتها في دواخلي، حاولت جاهدة أن أقتل كل سؤال ينبت فيّ.. وليتُ وجهي قبلة واحدة هي الزواج بالحسن والتكفل بالولد إذا لم يعترض أبوه على مكوثه معنا... توقعتُ كل الشرور والمقالب يا عزيزتي، وكنتُ على استعداد لمواجهتها، ولكن أن يموت المعلم الحسن...هذا أمر جاءني كالطعنة من الخلف...!

دارت الأرض بسكينة وهي تسمع هذه القصة التي جرت أحداثها بالقرب منها دون أن تدرك ولو شيئا من فصولها... كيف أنها عاشرت أبطال حكاية أسطورية دون أن تكون على دراية بذلك...وخزتها قصة سعاد كثيرا، كانت تظنها امرأة قيَم ورصانة... فإذا بها تراها الآن عابثة، لاهية... تذكرُ، وهي التي لم تتزوج بعد، تذكركم مرة غبطتها على حياتها، على زوجها الذي وإن لم تكن تعرفه، إلا أنها كانت تستنتج من خلال أحاديث سعاد عنه في زمن سابق أنه إنسان طيب بكل المقاييس.

مدت سكينة ذراعها فوق ظهر محدثتها وقالت لها:

- عزيزتي... هل كنت تكرهين زوجك..؟ هل صدر منه ما حثك على خوض مغامرة حب كهذه؟

ردت سعاد وهي تجد في حديثها مع سكينة بعضا من الشفاء...بعضا من التخفيف عن نفسها المثقلة:

- أبدا...أبدا... كان إنسانا طيبا، كان طفلا في عقده الثالث... احتفظ لشبابه ببراءة طفولته...وهذا ما يؤلمني يا سكينة... يؤلمني أنني خسرت إنسانا لم أقدره حق قدره، ولم أنزله المكانة التي يستحق...ولذلك ليس غريبا أن أفرط فيه و أنا التي كنتُ لحظتها أجهل بأن ليس كل الرجال مثله... تصوري يا عزيزتي أنه لم يرد لي طلبا ذات يوم.. كان يتجاهل كل ما من شأنه أن يربك علاقتنا أو يخدش شيئا من محبتنا...أذكر أنه في يوم من الأيام الأولى من زواجنا وضع يده على كتفي ملاعبا، فإذا بي أقول له: كم أحبك يا مصطفى... تنبهت حينها إلى أنني نطقت باسم شاب كنت قد تعرفتُ عليه قبله ... نظرت إليه، وجدت وجهه شاحبا وقد بردت يده فوق كتفي...علمتُ بأن الاسم جرحه وفتح للوسواس أكثر من باب في ذهنه.. ولكن الأيام كشفت لي بأنه تجاوز عن الأمر وتناساه وطواه مثلما طواه الزمان، استنتجت هذا عندما قال لي ذات يوم: لكلّ ماضيه يا سعاد، ولكن الحاضر هو ما نود أن نشترك في صناعته..

- والله إنها لخسارة أن تفقدي مثل هذا الرجل...

مسحت سعاد دموعا غسلت وجهها، ثم واصلت:

- كان إنسانا شامخا... وكنتُ حقيرة بما تحمل هذه اللفظة من دلالة، كان يحرص على سعادتي، ينفق جهده لقضاء حوائجي، ويمد يد المساعدة مرارا كلما أحس بأن الأشغال تراكمت على عاتقي أو أنني مرهقة أو متعبة... عهدتُ منه ابتسامة صافية يستقبلني بها كلما عُدت من العمل، يعاملني كطفلة، ويعبر لي كل يوم بأنه يحبني، يحبني بألوان مختلفة.. يحبني كما أنا ...لا أذكر أنه ذات يوم جرحني بعبارة أو وخزني بكلمة حادة... عندما يغضب كان يصمتُ وكنتُ أسمع في صمته كل الكلمات التي لم يقلها...

تأثرت سكينة كثيرا وهي تسمع هذه الأشجان المتكسرة، وهي تنصت لهذا الهيكل العظمي جنبها الذي نخره الهم وأكله سؤال الضمير، قالت:

- والله إن أمرك أقرب إلى الخيال منه إلى الواقع .... ما الذي ميز الحسن حتى تفرطي في رجل يعيش معك بمعاني السماء؟ ما لم أفهمه هو أنك كنت تعلمين هذا ورغم ذلك أقدمت على الطلاق وقررت بناء حياة على أنقاض أخرى...

ردت سعاد في شيء من الانزعاج مخلوط ببكاء:

- أرجوك يا سكينة لا تنضافي إلى صف الضمير فتنهالي عليّ بأسئلة أحدّ من السكين.... ذريني أحكي لك...اسمعي فقط....هذا تاريخ ميت أحييه أمام ناظريك ...أستريح بسرده ...فلا ترهقيني من أمري عُسرا...

أطرقت سكينة دامعة العينين بعدما علمت بأن الوجع قد بلغ من نفس زميلتها كل مبلغ، قالت لها وهي تربت على كتفها:

- أعتذر...لم أقصد نكء قروحك...ولكنها أسئلة استفزتني لا غير...تحدثي يا عزيزتي كما تشائين...
- لم يكن المعلم الحسن بأحسن من زوجي... ويكفيه عيبا أنه شجعني على الطلاق ولم أجده عقْلًا عندما ركبتُ قلبي... بعد فوات هذه الأيام على حادث وفاته، استرجعت شيئا من عقلي ولكني فقدت أشياء كثيرة كانت مستقرة في داخلي...استرجعت عقلي في لحظة متأخرة بعدما وقع الطلاق ووجدتني الآن أعيش حياة عرجاء، لا الزوج بقي...ولا الحلم تحقق...وحده الألم والحزن يتربع فوق قلبي ويجثم على أيامي...

توقفت سعاد عن الحديث واستدارت بوجهها لترى مدى انتباه سكينة لحديثها، وعندما وجدتها صورةً خاشعة، واصلت:

- الحسن... الحسن... لا شيء يميزه، ولكنه الإعجاب أصابني في لحظة ضعف فتضخم حتى أهلكني.. وهل كل من نعجبُ به مضطرون للوقوع في حبه؟ ...إنها الحماقة التي غلفتني وقتها يا سكينة .. وكم ندمتُ لأنني لم أفاتحك في الأمر من قبل، كان من الممكن أن تزيلي بعض ما غشى عينيّ...
- قدر... والإنسان أمام قدره يكون أعزل لا سلاح له ولا رأي ولا قوة... ولكن يا سعاد هل تزوج زوجك القديم من جديد؟
- لا ... كلما جاءني بيوسف بعدما يقضي معه بعض الوقت إلا واكتشفت من خلال حواره المقتضب معي أنه مازال بمفرده لمّا يتزوج بعد...

- إذا يمكنك أن تقترحي عليه الرجوع... آنذاك ستطوى هذه الصفحة من حياتك وتنقذين ذاتك المتردية..
- لم يبق لي أمل في الحياة إلا هذا... ورغم ذلك لم أقوَ بعد على أن أبادره بالكلام...أو أقترح عليه الرجوع...ولكني مصممة على ذلك في القريب العاجل قبل أن يُدخل حياتَه امرأةً أخرى...

****

استنفدت سعاد حيَلها في التلميح للأستاذ محمد بأنها مستعدة لأن تعود من جديد إلى حياته. كان يتجاهل كلماتها الملمّحة، يتظاهر بعدم الفهم أو بشرود الذهن، ولا يكاد يتجاوز الدقيقتين بعدما يعود بيوسف إليها حتى ينصرف في خطوات متسارعة. لم يُعرها اهتماما، لم يُبد رغبة في أن يستمع لها، كان يوسف هو الخيط الوحيد الذي يربطه بها، ولولاه لنسيها جملة وتفصيلا.

تُلقي بجسدها المتهالك فوق السرير، تذرف دموعها كالعادة ... أصبحت بعدما أدخلَتْ حياتها جحر الضب لا تكف عن البكاء، اتخذت لها منه وردا كل يوم.. وجدت فيه مخلصها من أحزانها التي تُحسها تتكتل في صدرها مرارا ككرة من نار مُحرقة.

وهي مستغرقة في تفكيرها وبكائها، اقترب منها ابنها يوسف حاملا لعبته وقال لها:

- ماما... لماذا تبكين؟

مسحت دموعها واحتضنته ثم قالت:

- لا شيء يا بني... لا شيء..

أخرج يوسف من جيبه الصغير ورقة مطوية، مدها لأمه وقال لها:

- ماما...هذه الورقة أتيتك به من بيت أبي...

سيطرت الدهشة على سعاد، توقعت في الورقة كل شيء، توقعت أن تكون طاوية تحتها تاريخا أليما، أو مستقبلا جميلا... توقعت أن تكون استهزاء وسخرية من قدرها الذي تعيشه ...توقعت أن تكون فارغة ..لا تحمل شيئا...

أخذت الورقة وأسرعت في فك طياتها، ثم قرأت (عزيزتي.. بعد تفكير طويل... قررتُ أن أتزوج بك.. لا تهمني الظروف.. يهمني أنني عندما أحببتك أحببتُك بصدق... سأسافر لبعض الوقت، وبعدما أعود سيكون لنا لقاء لترتيب أمورنا) لم تدر سعاد أي شعور تدفق في قلبها... أحست نفسها طائرا خرج للتو من القفص...أحست نفسها ملاكا...أهي تحلم أم هذه الدنيا تضحك في وجهها؟.. هوت على خد ابنها المذهول تقبله بحرارة مفرطة ..أحست بالحياة تدب في عروقها...ما أعظمك يا محمد... تنسى حتى الضربات التي تطعنك وقد تسرق شيئا من سعادتك وبعضا من عمرك... تتجاوز بسرعة مفرطة عن أخطاء غيرك وكأنك لست مخلوقا من طين... أ كلّ ذلك الجحيم الذي أدخلتك فيه قبل الطلاق تنساه اليوم وتقرر العودة... من أي منبع تستلهم حِلمك، صبرك، ترفُّعَك... لا تَزيدُني الأيام إلا معرفة بأنك متفرد... كنتُ أتساءل لماذا تتجاهل كلماتي التي كانت تلمح إلى العودة فإذا بي الآن أكتشف أنك تجاهلتها لتفاجئني... لتشعرَني بأنك أعظم مما كنتُ أتوقع...أرفع مما كنتُ أتصور...

****

في ساحة المدرسة، على الساعة الثامنة إلا الربع، جعلت سعاد تنتظر قدوم زميلتها سكينة لتزف إليها خبرها السار وتُعلمها بأن فصول عذابها انتهت

وهي على أبواب حياة جديدة ستُعلن فيها ولادة جديدة بعدما تُحرق من ذاكرتها ماضيها المشوه. لم يَطُل انتظار سعاد حتى ظهرت سكينة من بعيد مقبلة في اتجاه المدرسة، هرولت سعاد في اتجاهها، احتضنتها ثم قالت لها ودموع الفرحة قد غمرتها:

- صباحك مبارك صديقتي...

ردت سكينة وقد قرأت في أسارير صاحبتها علامات السعادة:

- وصباحك أجمل عزيزتي... قاسميني فرحتك ..
- ستعود المياه إلى مجاريها...

سألت في دهشة:

- هل تتحدثين بصدق؟
- نعم عزيزتي...
- وكيف ذلك...
- جاءني يوسف بورقة من عند أبيه فيها وعدٌ بالرجوع ..وبأنه سينسى كل شيء...
- والله لقد فرحت كثيرا لهذا... الحمد لله الآن ستكتمل فرحتي...

قالت سعاد في شيء من العتاب المتصنع و ابتسامتها تغلبها:

- إذا هناك فرحة لم تخبريني بها أيتها الشريرة ... أخبريني ...
- في الحقيقة لم أتسرع إلى إخبارك حتى أتيقن من صحة الأمر... سأتزوج عما قريب يا سعاد...

تعانقا مرة أخرى في حرارة زائدة:

- يا الله.... هذا يوم ليس كمثله يوم... ما أجمل أن تغمرنا أقدار الفرح دفعة واحدة...

- الحمد لله...كنت قلقة بعض الشيء، كنت أود إخبارك بأمري وفي الوقت ذاته أتذكر قصتك والحزن الذي يجرحك فأُحْجِم عن الأمر... أما الآن الحمد لله ... فرحنا معا...
- الحمد لله والله لقد اكتشفت بأن الحياة تنطوي على المفاجآت بما يفوق توقع الإنسان... واكتشفت بأن المرء يجب أن لا ييأس يأسا يعيق حياته..
- ألم أقل لك يا عزيزتي لا تيأسي...
- بلى...

ثم واصلت كلامها كأنها تذكرت شيئا تخاف أن يفوتها:

- لم تخبريني عن فارس أحلامك... عن هذا الرجل الذي سيحظى بفتاة مثلك جميلة الأخلاق والخِلقة...
- في الحقيقة لم نلتق إلا مرتين اثنتين، ولم أتعرف عليه كثيرا... كان يكره الغوص في الماضي والأسئلة التي تحرك ما رسبه الزمان في عمق تاريخه... ولكن لقائي معه كان كافيا لأن أعرف حقيقته وطيبة أخلاقه...
- بارك الله لكما ...

ثم قالت ممازحة:

- سكينة هيا لنعلن زواجنا في نفس اليوم... ونفرح معا..

ردت سكينة مبتسمة:

- على ما يبدو ... سأتزوج في الأيام القليلة المقبلة... بهذا كان قد وعدني..
- أنا في الحقيقة لا أعرف الوقت بالضبط، ذلك أنه سافر ولا أعرف كم سيدوم سفره، ولكنه عموما لن يتجاوز الأسبوع ..

- سأدعوك لحضور الحفل.. ثم أردفت ضاحكة:
- إياك أن تنسي دعوتي أنا كذلك ...

ابتسمت سعاد وقالت لها:

- لا أبدا... لن أنساك...ولن أنسى تعاطفك معي أيتها الرائعة ...

****

تعذر على سعاد حضور حفل زفاف صديقتها سكينة، كان يوسف لحظتها مريضا، ولذلك لم تتمكن من الحضور واكتفت بإرسال الهدايا إلى صديقتها وتهنئتها عبر الهاتف. كانت سعاد تتمنى في خاطرها لو أنها حضرت وشاركت زميلتها فرحة عمرها، ولكن الأقدار حالت دون ذلك. وجدت سعادُ في سُكينة وحدها، من ضمن جميع زميلاتها، سندا وصدرا رحبا وقلبا صادقا... اكتشفت فيها الصداقة الحقيقية والروح الطاهرة... كيف تكون سكينة الآن؟ كيف تكون الأجواء هناك؟ لا شك ستكون متزينة بفستان جميل يزيدها بهاء وتألقا.. ستكون فَرِحة مسرورة ...سأطلب منها صور الحفل بعد لقائها مباشرة ..

توجهت صوب الشرفة، تتأمل النجوم حاملة في يدها الورقة التي رممت كيانها الذي كان على وشك أن ينقَضَّ، تنظر بعينيها الحالمتين إلى السماء، تقرأ فيها الأمل الذي يَعِدُ به الغد، والحياة التي أخذت تحيا من جديد وتتدارك ما تصدَّع منها. ما هي إلا لحظات بهيجة حتى سمعت رنين هاتفها في الغرفة، خطفها الأمل والشوق والسؤال من الشرفة ووجهها صوب هاتفها... حملته وفتحت الرسالة التي وصلت، إنها رسالة من سكينة،

بعثت ببعض صورها الملتقطة في الحفل.. أخذت سعاد تمرر الصور واحدة واحدة وهي تتأمل ملابس العروس التي يعلوها الفرح وتطبعها البهجة.. فجأة أحست بخنجر ينغرز فيها... ما الذي تراه؟ ما هذا؟... من هذا؟.. جعلت تحدق في الصورة بملامح يابسة والدموع آخذة في اعتلاء جفونها.. لم تصدق ما تراه... ما هذه المهزلة.. كيف ؟ لماذا؟ متى؟ فركت عينيها مرارا، وأعادت تأمل الصورة ..؟ من هذا الذي يجلس إلى جنب سكينة بجلبابه الأبيض وطربوشه الأحمر.. من هذا الذي يقبّل يد سكينة..؟ إنها ملامح تعرفها...مسجلة في عمق ذاكرتها، مخروزة في حياتها...!

هوت فوق السرير وأخذت تتهشم، تعالت تنهداتها.. أحست بقلبها يدق في إعياء متزايد، سرت برودة في مفاصلها، تحطم داخلها وانطفأت أنواره... بيد مرتعشة تحمل الهاتف من جديد... تقربه من عينيها في حركة جنونية حمقاء... إنه هو ...كيف إذن؟ استشعرت سهاما تغوص في قلبها المشقوق.. تثاقلت عليها جوارحها، دارت بها الأرض كما لم تدر من قبل.. جعلت تحس بأن نارا اضطرمت في فؤادها.. الحياة مهزلة ... والقدر عنيف.. والمرارة مذاق مستمر.. خارت قواها، تعطل تركيزها.. دبت الرجفة في ثناياها.. !

تحمل الهاتف للمرة العشرين، تغرس عينيها في الصورة، تتأمل الملامح بتفاصيلها.. تبتسم فيما يشبه الجنون، يغلبها البكاء، تقهقه، تغني بكلام غير مفهوم، تلطم خدها، تشق صدرها، تخدش وجهها وتسير في الغرفة قافزة هنا وهناك فاقدة الوعي والتوازن ... تعود بعينيها إلى الهاتف، إنه هو ...ما قصة الورقة..؟ إنها إذا ورقةٌ أخطأت عنوانَها! إنها كُتبت لغيرها لا لها... لماذا تسلقت أبراج الأمل دون إذن.. لماذا كل هذه الحماقة..؟ تبكي كثيرا... تصرخ.. تكور قبضتيها وتهوي بهما على السرير الذي دفنت وجهها فيه...

رفعت وجهها، أخذت الهاتف من جديد، أحست بموجة الجنون قد ركبتها، حدقت في الصورة جيدا وهي تولول، إنه هو.. إنه محمد...زوجها السابق، أظلمَتِ الحياةُ في عينيها بعدما أظلمت عيناها في الحياةِ!!

٢٥ فبراير ٢٠١٧م
القصر الكبير

مُدرّسٌ في الخَرِيفِ..!

محمود، مدرس جِدّيٌّ، تعرفت عليه في سنتي الأولى التي عُينت فيها بإحدى المدن الشرقية. كان طويل القامة، جاحظ العينين، كثيف الشعر، حاد الملامح دقيقها. سمعتُ عن جديته وإخلاصه في العمل قبل أن ألتقيه. ولم أكد أحتك به إلا قليلا حتى أتخذتُه قدوة لي، خاصة بعدما اكتشفت أن أغلب وقته يقضيه بين الكتب، وكنتُ أتحيَّن الفرص لأجالسه و أستفيد من غزارة علمه.

عاشرت محمودا مدة طويلة فتأكد لي تقديسه لعمله، وبذله ما في طاقته لأداء رسالته التعليمية التربوية على أحسن وجه. كنتُ أحسبُ، بداية الأمر قبل التقائي به، أن جديتَه فورة حماس ستخبو، وشِرَّة لن يتراكم عليها من الوقت إلا قليل حتى تفتر، ولكن محمودا كان أكبر من ظني وزيادة، ذلك أنه ظل على حاله طيلة المدة التي عاشرته فيها لا يزيده الزمن إلا تشبتا بمبادئه واحتراما لمهمته ومعرفة بعظيم رسالته. كنتُ أراه إنسانا يطل من سماء عالية رغم تواضعه، فالمبادئ التي كان يؤمن بها ولم يكن يتنازل عنها، رغم ما يستجد في حياته من مواقف مختلفة، أكبرته في عيني إكبارا، وجعلتني أزداد يقينا بأنه إنسان يعيش رجولته على امتداد حياته.

***

ذات بداية موسم دراسي، كان محمود يدرس التلاميذَ مكونَ النصوص، وبعدما وضعهم في السياق الذي سيدور حوله موضوع الحصة، أمر الزهيدَ أن يقرأ نص الانطلاق. جعل الزهيدُ ينظر في المدرس وفي النص، ثم أخذ يمرر يده المرتعشة فوق جبينه وهو يعض على شفته السفلى

. دب الصمتُ في القسم، ووجد الزهيدُ نفسَه أمام صمت الأستاذ ونظرات زملائه مُحرجا، مختنق الأنفاس. ولأن الأستاذ كرر طلبه، شرع الزهيدُ في القراءة، ولكن الكلمات لم تسقم على لسانه ذلك أنه تتعتع كثيرا ونسفَ لغة النص قاتلا دلالته.

لم يكد ينهي الزهيدُ الفقرة الأولى من النص حتى توقف عن القراءة معلنا استسلامه ور افعا عينيه النائمتين في وجه الأستاذ الذي ابتلعته الدهشة. لأول مرة يصادف محمود تلميذا في سنته الختامية من السلك الثانوي لا يستطيع القراءة ...!! غادر محمود المكتب حائرا وقد التهمتْه علامات استفهام كثيرة ونخره الألم. سار في اتجاه التلميذ غير مصدق ما يجري، قال له كَمَنْ يستنجد، كمن يرفض الو اقع ويبحث عن بصيص أمل، كمن يحاول أن يتجاوز وعكته أو يتمسك بقشة و هو على أبواب الغرق:

- الزهيد ... واصل قراءتك... لا ترتبك...

رد التلميذ مُعرّبا حقيقة مُرة:

- لم يسبق لي أن قرأت نصا داخل القسم... ثم إنني لا أجيد القراءة...لا أعرف

استغرب محمود كثيرا، كيف تراكمت المواسم الدراسية في تاريخ الزهيد حتى وصل مستوى البكالوريا وهو لا يعرف قراءةً ولا يجيد فك الحروف بعد. أصيب بوعكة نفسية، وغلفه ذهول كبير ودارت في رأسه ألف فكرة، ووجد نفسه حائرا ومشدوها أمام الزهيد... أمام المستقبل الذي ينتظر هذه البلاد. انصرف عن الزهيد، وجعل يقطع القسم جيئة وذهابا وهو شارد الذهن غائبه، ثم توجه مرة أخرى صوب الزهيد وقال له كمن يحاول مواجهة وقاحة الو اقع :

- عزيزي الزهيد... اقرأ ..أنت تستطيع... لا ترتبك. أنت لم تصل إلى مستوى البكالوريا إلا لأنك تلميذ مجتهد وقطعت أشواطك التعليمية السابقة بنجاح... حاول أن تثق بنفسك و اقرأ متجردا من الخجل والارتباك ...

أما الزهيد فوجد في خطاب الأستاذ شيئا من الفلسفة وكثيرا من الجهل بالو اقع... قال بملامح غائبة:

- ليست مسألة ارتباك....
- إذا اقرأ...
- ما أنا بقارئ..
- اقرأ ...

رد بشيء من الانفعال:

- ما أنا بقارئ... لا أعرف ...لا أريد... يمكن لتلميذ آخر أن يقرأ!!

علم محمود أن الو اقع فيه جانب مرٌّ عنيف ينخره المرض في داخله، وأن صَرْح التعليم أخذ يتشقق.. يتصدع. توجه صوب السبورة، أمر تلميذا آخر أن يقرأ، ثم واصل شرحه للدرس بعقل ساهم.

بعدما انتهت الحصة، خرج التلاميذ كلهم إلا الزهيد فظل جالسا حتى فرغ القسم، جمع أدو اته وقصد الأستاذ وقال له:

- أستاذي...
- نعم بني..
- أعتذر عن تعتعتي... وأرجو ألا أكون قد أقلقتك بعدما اكتشفتَ بأني لا أحسن القراءة.. ووالله، رغم وضعي وما تعرفه عن مستواي، إن لي لحُلما عظيماً..

تعجب محمود وقال له بنبرة يطبعها الاستغراب:

- وما هو؟ أخبرني...
- أريد أن أصبح رجل سلطة... أو قُل أريد أن أكون نائبا من نواب الأمة..

كتم محمود في نفسه ضحكة لو ضحكها لارتجت لها جنباتُ القسم، قال له :

- بإمكانك ذلك... ولكن عليك أن تبذل جهدك لتحسين وضعك المعرفي والدراسي، آنذاك ستحقق حُلمك يا عزيزي...
- ليس بالضرورة يا أستاذي... أن تكون رجل سلطة فذلك مطلب يمكنك أن تصله قافزا على كل الأشياء ... هكذا أعتقد... أنا أحلم بدون شروط ... ثم واصل بنبرة مازحة:
- الشروط تفسد الأحلام...

ضحك محمود ضحكة خفيفة وهو يحرك رأسه ثم قال له محاولا ختم المحادثة التي تبدت له بأنها فارغة عديمة المعنى:

- وفقك الله... المهم .. نصيحتي لك أن تجتهد ولا تضيع وقتك.. واعلم أنه لا بلوغ للمعالي إلا بالعلم.. (اقرأ ورتل وارتقِ)..!

حرك التلميذ رأسه دافنا في دواخله استهزاء عظيما ثم انصرف متصنعا ابتسامة يابسة على شفتيه.

****

استمرت الأيام تستهلك الموسم الدراسي، وتعرف محمود على تلاميذه أكثر، فتبين له بأن القسم الذي يتواجد به الزهيد، قسم اجتمع له فيه شيء من عجائب الدنيا، فإلى جانب الزهيد، التلميذ الذي لا يجيد قراءة ولا كتابة، هناك تلميذ آخر يسمى شادي، نابغة، حاد الذكاء، قلما يخطئ جوابا، عميق الفهم، بعيد النظرات كأنما يرقب آفاقه التي يحلم بلوغها... حمدَ محمودُ اللهَ في سرّه، ووجد بأن مرارة ما شعر به أمام الزهيد قد ذاب وتحلل باجتهاد شادي المتواصل، وعمله الدؤوب، وحرصه الكبير على المطالعة وإحراز المراتب العليا. قال له محمود ذات يوم وقد تأخر في جمع أدواته بعدما خرج زملاؤه:

- شادي...
- نعم يا أستاذ
- تعال إلى هنا..

لم يكمل شادي جمع أدواته حتى توجه مباشرة صوب المكتب بمشية واثقة. قال له محمود والابتسامة بادية على محياه وقلبه ينعم بالرضا:

- أحبكم جميعا يا شادي... ولكني أحبك أنت بشكل خاص..

أحنى التلميذ رأسه وقد غلبه الخجل، واصل الأستاذ:

- أحبك والله يشهد.. أتدري أولا لماذا؟
- لماذا يا أستاذي العزيز؟
- لأنك مجتهد جدا... لأنك تضيء القسم، لأنك تبعث فيّ الحياة وتتركني متمسكا ببعض الأمل، وتجعلني أرى شيئا من المعنى يتحقق من خلال هذه الدروس التي ألقيها وهذه المؤسسة التي أقصدها صباح مساء..

أحس التلميذ شادي بالفرحة تغمره، اغرورقت عيناه لمدح الأستاذ، تخيل نفسه يطير، يحلق في السماء كطيور تقصد معالي المجهول... لم يتمالك نفسه فهوى على رأس محمود وقبله وقال له:

- يشهد الله أنني أحبك كذلك يا أستاذي... تعلمتُ منك الكثير.

****

توالت أجيال التلاميذ متعاقبة بين يدي محمود، رسمَتْ له بتواليها المنحنى الهاوي الذي يعرفه التعليم في البلاد، والصرح الذي يتآكل، والمستقبل الذي يتلبد بالغيوم، والناس الذين يمكرون من وراء ستار. كان يقرأ المرارة في صفوف تلاميذه المكدسين أمامه وهم يقتعدون طاولات تضيق بهم، ويشم رائحة الجريمة والجهل اللذين سيتفجر بهما الزمان الآتي من خلف الغيب، ويجد أثر الخديعة والمراوغة في صفحات الكتاب المدرسي... ولأنه رجل يعيش حياته بمعاني السماء ويؤدي وظيفته بمنطق الضمير، كان أسفه يتضخم بتوالي السنين، وكأن الزمن الذي يتقدم لا يأتيه إلا بالأجيال التي تتأخر وتتردى...! أما الزهيد فكثرت أمثاله في السنوات المتأخرة واكتسحت نسخُه المؤسسات في ربوع الوطن بعدما أحسنت المذكرات والمخططات نسخها، ولم يعد حالة شاذة تستدعي السؤال وتثير الغرابة... بل الغرابة عينُها هي العثور على أمثال شادي الذين ضن بهم الزمان ونبذهم واقع مهزوم.

يجلسُ محمود ذات ليلة في بيته، يسهر في جمع جل ما كُتب عن إصلاح منظومة التعليم... يقرأ هذا النص وذاك، يُطالع هذا المقال والآخر، يصاب بدوار حاد، يقلب مذكرة وزارية كانت أمامه ويكتب على ظهرها بقلم أسود: (لماذا تتكلمون كثيرا؟ لماذا تضيعون الأوقات في الهامش وتتركون المتن تتقاذفه رياح المجهول؟ لماذا تقدمون العربة على الحصان؟ لماذا لا تتقنون

شيئا غير إصلاح الواجهة؟) يضع قلمه فوق أوجاعه، يتنهد، يصحب أحزانه إلى فراشه وينام بقية ليلته والخوف من شبح الغد يملأ عليه قلبه!

****

طوى محمود من عمره سنين، وتمشى الشيبُ خلال رأسه، و أنهى خدمته وحصل على المعاش بعدما دبت الرجفة في أوصاله. غادر القسمَ مريض الظهر مصابا بحرقة في المعدة وصداع يزور رأسه كل ليلة، غادره كما غادرتهُ عافيته و انتهى به الحالُ مصاحبا كيسا بلاستيكيا من الأدوية يلتهم أقراصه قبل النوم وبعد اليقظة محاولة منه للتمسك بأذيال الحياة. غادر محمود القسم وفي فؤاده أحلام ذابلة، وأمام عينيه و اقع يجرح، وفي تاريخه ذكريات موجعة وماض منسوف. غادره وشبح الزهيد يطارده رغم السنوات الطويلة التي فصلت بينه وبين ذلك التلميذ... غادر القسم ولم يشخ منه إلا البدن، أما عزيمته وحماسه فظلا متقدين رغم ظروف العمل المثبطة والسياسة التي تلون الأفق بالقتامة...!

دأب محمود بعدما حصل على التقاعد على زيارة مقهى مطل على مدخل المدينة، يصحب معه كتابا ومذكرة، مرة يقرأ ومرة يكتب، وبين المرتين تأملات في الحال والمآل، حنين إلى ماض جميل، وتألم بوقائع ماض آخر أليم..!

دخل المقهى ذات يوم، لم يصعد كعادته إلى الطابق العلوي للإطلالة على الشوارع المتقاطعة، فضل البقاء في الأسفل على قارعة الشارع يُذهب شيئا من شروده بقراءة أسطر من كتاب كان معه ومتابعة حركة السيارات ما بين الفينة والأخرى.

لم يمر على مكوثه بالمقهى إلا قليل حتى توقفت أمامه سيارة ضخمة فارهة، نزل منها شخص تتقدمه كرشه، يرتدي لباسا بالغ الأناقة ونظارتين شمسيتين. أقبل الرجل صوب محمود وبادره بالسلام:

- السلام عليكم أستاذي... ثم مد له يده ليصافحه.

تعجب محمود من الرجل، تأمله جيدا، حاول أن يحدق في ملامحه عله يعرفه، ولكنه استسلم في الأخير وقال له:

- وعليكم السلام ورحمه الله... من سيادتكم؟

ضحك الرجل قليلا، ثم قال له:

- ألا تتذكر يا أستاذي...؟
- لا ... ربما نسيت..
- أتذكر نص مصطفى صادق الرافعي الذي كان مقررا في سلك البكالوريا؟
- نعم... ولكني لم أفهم..
- أتذكر تلميذا تتعتع في قراءته ذات يوم اسمه الزهيد؟
- آه...تذكرت ... نعم تذكرت... ما به؟
- أنا هو الزهيد أستاذي!

مد له محمود يده مرة أخرى وسلم عليه بحرارة باردة وهو يقول له:

- أعذرني يا عزيزي ...لقد هرمتُ، وضعف شيء من ذاكرتي، ولولا أنك سابقتني بالسلام لما عرفتك...
- هذا واجب...
- منذ أن غادرتَ المؤسسة لم نلتق! الحياة تجري.. لقد تغيرت هيئتك تماما...

- هذه هي سنة الحياة .... أعمارنا هي التي تنقضي يوما بعد يوم...
- معك حق... ما جديدك...؟ وماذا تفعل؟ ..
- لقد حققتُ ما كنت أحلم به...؟
- وبم كنتَ تحلم؟ ذكرني...
- لقد ترشحت للانتخابات الأخيرة وفزت... وابتداء من الأسبوع المقبل سأدخل قبة البرلمان...!!!

فتح محمود فمه تعجبا وقد تشنج شيء من عضلاته وغلبته الحيرة فلم يدر أيُبَارك للزهيد أم يلطم خده، حاول أن يتماسك ويتغلب على شعوره المضطرب، قال له راسما بملامحه ابتسامة صفراء:

- الحمد لله... أنت مثابر... ما شاء الله...

أحس الزهيد بأن موجةً من الغرابة اعتلَتْ صفحة وجه محمود بعدما سمع الخبر، تبدى له وجهه منقبضا وتكمشت فوقه أطلال ملامحه. ولأنه علم بأن الأستاذ لم يفرح لحلمه الذي اقتعد الواقع، سلم عليه وغادره تاركا إياه ساهم النظرات.

جلس محمود على المقعد، تغلب عليه الرعشة وتسري في مفاصلة قشعريرة.. غادر واقعه في اتجاه خواطره وذكرياته القديمة مع الزهيد... تذكر التعتعة...الاستسلام أمام النص، ركاكة التعبير.. تذكر الحلم العجيب الذي صدَّقَهُ الواقع وو افقته أقدار الزمان الماسخ... تذكر قول الزهيد يومها (أن تكون رجل سلطة فذلك مطلب يمكنك أن تصله قافزا على كل الأشياء.. أنا أحلم بدون شروط..) أيقظ الموقفُ مواجعه، حرك ما دفنتْه أقراص الأدوية، ضحك من نفسه يوم تعجب من قول الزهيد وكتم ضحكته في أرجاء صدره...!

ظل محمود غارقا في يمّ أفكاره المائجة، ذكرياته البائدة ومطامحه الميتة، لم يخرجه من خواطره إلا رنين هاتفه الذي و افقت موسيقاه الحزينة مشاعر الخراب التي كانت تذبحه، أخرجه من جيبه، ألقى نظرة على الرقم المتصل، وجده رقما جديدا غير مسجل في القائمة، رد عليه بنبرة هادئة خافتة:

- آلو...

جاءه الصوت من خلف السماعة:

- السلام عليكم..
- وعليكم السلام ورحمة الله
- هل الأستاذ محمود هو من يخاطبني؟
- نعم... من معي؟
- تلميذك القديم أستاذي... كنتَ درستني ذات موسم... اسمي شادي..
- آه تذكرتك ...أصلا لم تغب عن ذاكرتي أيها العزيز..
- شكرا جزيلا لك يا أستاذي ...
- كيف حالك؟
- الحمد لله بخير.. وأنت يا أستاذي كيف حالك؟ كيف حال العمل؟
- الحمد لله... الحمد لله على كل حال، لقد أُحِلتُ على التقاعد يا عزيزي... ظللتُ بعدك أتطلع فيما تعاقب علي من أجيال إلى تلميذ يُشبهك... ولكنك كنتَ الوحيد الذي خلد في الذاكرة...
- شكرا جزيلا لك.. دائما تثلج صدري بكلماتك الرقيقة ...

- لم أقل إلا الحق.. و أنت تعلم أنني لم أكن أتقن (حرفة الصباغة وتنويع الأقنعة)...

ضحكا معاً، ثم واصل محمود:

- كنتُ دائما على يقين بأنك ستصل إلى ما تريد... كنتَ شُعلة، وكنت جبارا في سيرك، في عزمك، وكانت أحلامك عالية... ولهذا قلتُ لك بأن أمثالك شح بهم الزمان بعدك...

لم ينه محمود كلامه حتى تناهى إلى سمعه صوت بكاء خلف السماعة، استفهم مستغربا:

- شادي... ما بك؟!
- أستاذ... ذكرني كلامك بماض جميل... لم أحقق شيئا من أحلامي... رأيتها في هذا الو اقع الذي لا يؤمن بالكفاءة تتحطم واحدا واحدا... الو اقع كان صلبا حديدا... وهذا الزمن خنق مطامحي بيده اليابسة...!
- لقد أفزعتني.. ماذا تقول... لم أفهم!!
- أستاذ.. تركتُ أحلامي جانبا بعدما تشققتْ وتحطمتْ واستجبتُ لشروط الو اقع....!
- وكيف ذلك يا شادي؟
- لم أصل إلى ما كنتُ أرغب فيه... تخرجت فقط من مركز تكوين المعلمين السنة الماضية.. وعُينتُ في أحد الدواوير البعيدة...

ثم غلب صوتَه البكاءُ من جديد، وبمشقة جاهد نفسه وواصل:

- لقد عُينت في منطقة نائية... ليس فيها ماء ولا كهرباء... في أعلى الجبل، حيث العذاب، والبعد البعيد، والعيش في ظروف القرون

الوسطى.... لقد تكسرت أحلامي، حُلما حُلما... وكأن الحياة تسير على الضد من مطامحنا..

غلبه البكاء فقطع الاتصال، أما محمود فظل مسمّرا في مكانه بعدما تلقى الصفعة الثانية على خده الآخر، مسح بيده على رأسه الشائب وفي قلبه نار متوهجة...

نكأت المكالمة الأخيرة قروحه، وأشعرته بوقاحة الوقت، لم يخطر له ببال يوما أن الزهيد سيدخل قبة البرلمان فيما ستموت أحلام شادي الذي بهر الناس بذكائه وكفاءته. استشعر محمود مرارة في عُمقه، ولأنه اعتاد استخراج الحقول الدلالية للنصوص أيام عمله مدرسا، بترورقة من مذكرته ورسم جدولا من خانتين غير متساويتين وكتب في أعلاهما: الحقل الدال على السياسة والحقل الدال على التعليم... ثم قام من مقعده وسدد للنادل ثمن قهوة لم يحتسها وألقى بالورقة في مهب الريح وتتبعها بنظرته الذابلة والغيب يحتضنها.

١١ دجنبر٢٠١٦م
القصر الكبير

زواجٌ معلَّق..

لم يكن الأمر متوقعا.. وما لا أتوقعه هو الذي يتحقق غالبا، فهذه الحياة أراها، من خلال تجربتي، تحيا بالمفاجآت، وتموت عندما تكون على غرار ما يتوقع أصحابها. عندما جئت إلى هنا بفرنسا، ظننتُ أنني خلّفتُ ور ائي قلبي وعواطفي الوردية، وجئت متأبطا عقلا وقلما أسعى من خلالهما إلى تحقيق حلمٍ ظللت لسنوات طويلة و أنا أحمله جنينا في ذهني! حسبتُ أن تلك الأمّ الرؤوم التي أنفقت من ذاتها لتكتمل ذاتي، وذلك الأب الذي تقوس ظهرُ عمرِه ليشتد عودي، حسبت أن حبهما وحده يعشش في داخلي، وسواه لا محل له في قلبي...! لم أتخيل قط أن قلبي هش إلى هذه الدرجة.. أم تراه كان مقفلا ولم يعثر على مفتاح يناسبه إلا هنا في باريس... لقد صرت الآن، ومكوثي هنا لم يتجاوز بعد بضعة أسابيع، صرتُ أعيش بقلب يلهث وعقل يشرد في خياله ما بين لحظة وأخرى..! هذه المدينة التي كنت أحلم بها منذ زمان، كانت تنتظر وصولي لتوقعني في شرك حب أراني الآن راكعا أمامه، وأعتقد أن حياتي لن تسير على طبيعتها إلا إذا تحقق لهذا القلب ما يريد...!

نهض من كرسيه، حاول أن يخرج من أفكاره العاشقة، وضع القلم على المكتب، وأغلق كتابا مكث يتفرس في صفحاته منذ ساعة دون أن يحصّل منه فائدة، لم يكن قادرا على التركيز... هذا الموضوع الذي نبت في حياته على غفلة منه، أو صحوة، لا يدري، جعل يسْتَلُّ أقساطا طويلة من وقته ليعيش بها... إيميلي صارت الآن تسيطر على تفكيره أكثر من ذي قبل... ولكن لماذا هي بالضبط؟ درس سنوات طويلة بفاس قبل أن يأتي إلى هنا لمواصلة دراسته ولم يشعر قط بميل تجاه زميلة من زملائه... كان جديا أكثر من اللازم، صرف حياته ووقته لبلوغ المراتب المتقدمة ولم يلتفت يمنة

ولا يسرة ليفتح لقلبه بابا من أبواب الحب.. لكنه الآن، وجد نفسه هائم القلب أمام إيميلي، هذه الطالبة التي تدرس في المعهد ذاته الذي يدرس فيه... طالبة من باريس، تمتاز بجدية ناضجة يشوبها المرح ما بين فينة وأخرى، وهي إلى جانب ذلك متقدة الذكاء يزينها الجمال الباريسي... أيمكن فعلا أن يرتبط بها؟ يسأل نفسه وهو ساهم يطل من النافذة يتأمل شوارع المدينة، يطول به السّهومُ ويبقى سؤاله معلقا يبحث في الغيب عن جواب.

*****

لم يكد الموسم الدراسي ينتصف حتى وجد رياض نفسَه يفكر بجدية في الارتباط بإيميلي، لم تزده الأيام إلا تعلقا بها، وعبثا كان يحاول أن يصرفها عن ذهنه ويسير بعقله خارج مجالها. كانت إيميلي متفوقة في كل شيء.. باذخة في كل شيء.. في ذكائها، في نباهتها، في أنوثتها وفي جمالها الفياض.. بين ملامحها تَجمّع ما تَفرّق من أمارات الجمال في غيرها، وهي إلى جانب ذلك متدفقة الأنوثة باهرة الإشراق. رياض نفسه لم يصدق كيف ضعف أمامها، وهو وإن كان في مرحلة سابقة لا ينوي الزواج إلا بفتاة أصيلة من فاس، من أسرة كبيرة عتيقة تحترم التقاليد وأعراف الفاسيين وتحسن أناقتهم البالغة التي تطال حتى كلامهم المشكول، المعرب، المبني... فإنه الآن هنا أمام إيميلي وتفوُّقِها النادر له فكرة أخرى كأنما ركّب في رأسه عقلا آخر غير الذي كان له... يتذكر أول مرة نزل فيها من الطائرة في مطار شارل ديغول بباريس فيبسم لهذه الأحداث والأفكار الجديدة التي عرفتها حياته... هل الهجرة إلى هنا كانت بمعنيين، هجرة للجسد وللروح.. نزل من الطائرة، لا يذكر أفقا له لحظتها إلا أن يكمل دراسته، ويعود بشهادته إلى فاس، ويترك لأمه بعدها فرصة البحث

عن فتاة تشاركه ما تبقى من حياته .. كان يسير في الشارع لحظتها وهو يجر حقيبته الكبيرة وعيناه تتفحصان المباني عن اليمين والشمال...

يتساءل في سره كل يوم وهو عائد من المعهد ذاهب إلى الإقامة المخصصة للطلبة الأجنبيين، يتساءل أي طريق سلكها حتى انتهى إلى التفكير في إيميلي؟ لم يسلك أي طريق، هكذا أجاب قلبُه، الطريق هي التي سلكته.. ثم لماذا يفكر في الأمر وكأنه جريمة... لماذا لايقبل على قلبه ويحقق له ما يريد، تماما، كما أقبل على عقله وحقق له ما كان يريد. شيء واحد يعكر خاطره كلما تذكره، وهو أن إيميلي غير مسلمة، وهي تبدو من خلال معرفته بها ذات شخصية قوية، وإلى جانب ذلك فهي عنيدة، ولن تقبل منه أن تدخل الإسلام في حالة قبولها أن تتزوج منه، وإن كانت تبدي له غير ما مرة إعجابها به وبنمط تفكيره... هو يعلم، أن أمه رغم تشددها وإصرارها على التقاليد الفاسية، ورغبتها الخفية في أن لا يقترن ابنها بفتاة خارج فاس، فإنها إن علمت بأن قلبه تعلق بفتاة أخرى فإنها لن تعترض على اختياره، فالموضوع في نهاية المطاف يخصه هو لا غيره... ولكن المشكلة، أن إيميلي غير مسلمة، وإذا علم بإمكان موافقة أمه وأبيه على الزواج بفتاة خارج فاس، فهو متأكد بشكل قوي أنهما سيعترضان إذا علما بأنها على غير دينهم...!

****

نفد الصبر، ونفدت القوة والتحمل، ونفد مع هذا كله الوقتُ... لم يستطع رياض أن يستمر في مناجاة نفسه دائما بموضوع إيميلي... قرر أن يخرج عن صمته، وأن يعلن مشاعره وينشرها عارية أمام زميلته إيميلي.. لا شيء يستدعي الخوف، ولا الارتباك... ولذلك فالبقاء حبيس الأحاديث الداخلية قتل للروح وتعذيب للفؤاد... أخذ هاتفه، ركب رقم إيميلي وضغط على زر الاتصال وجعل ينتظر الرد:

- ألو..
- ألو..إيميلي.. أنا رياض

ردت بصوت يستفيق من نومه:

- أهلا رياض... نعم أعرف.. سجلت رقمك في هاتفي في لقائنا الأخير..

استبشر رياض لهذا الأمر ورآه رغم بساطته أمرا ذا بال، قال لها:

- كيف أصبحت؟
- بخير، و أنت؟
- بخير.. أحسست نفسي متعبا هذه الأيام فخطر ببالي أن أتصل بك ...

ردت بنوع من الاندهاش:

- ما بك؟
- لا شيء ... يستغرقني التفكير فقط...

ردت ممازحة بعفوية مثيرة:

- لا شيء يمكن أن يجعلك متعبا... أعرفك جيدا... أنا صديقتك، ويمكنك أن تقاسمني أحزانك إذا لم يكن عندك مانع...
- صحيح؟

- نعم.. أنا بدوري أفضل أن أتحدث معك في أشياء تخص حياتي الشخصية.. مللنا من أحاديث الدراسة والبحث العلمي...

رد وقلبه يطير كفراشة في داخله:

- إذا أفضل أن نلتقي مساء... ما رأيك؟

ردت بعد صمت قصير:

- حسنا.. نلتقي في نفس المطعم لو شئت..
- حسنا..

أغلق رياض الخطَّ والفرحةُ تكاد تفجر دواخلَه، سيلتقي اليوم بإيميلي ولن يتردد كعادته، سيعبر لها عن حبه، وسيحاول أن يتجاوز تردده الزائد.. لا شيء ينقص إيميلي غير الإسلام.. ويمكن إن هو علم بقبولها الارتباط به أن يقترح عليها أن تدخل الإسلام، وإن كان يعلم في قرارة نفسه أن هذا الأمر ليس بالسهل، ففتاة مثلها، لا يمكن أن تقتنع بسهولة، وهو يتأسف في الوقت ذاته لأنه لا يملك من المعرفة أو القوة ما يقهر به عنادها أو يدفعها إلى اعتناق الإسلام...

****

في مطعم (l'abeille) كان اللقاء جميلا، منعشا، يكسوه شيء من الغموض ... وجد رياض أن اللقاء مثمر بعض الشيء، فبعدما استجمع قوته وجرأته التي لم تكن له في وقت سابق، استطاع أن يخبر إيميلي بحبه الدفين لها، وأن التفكير فيها صار يأكل أغلب وقته... صارت لها تجليات في غرفة إقامته، في دفاتره وكتبه... صار خيالها يطارده حتى في نومه.. لقد اكتشف من خلال حوارهما أن إيميلي هي الأخرى تحبه، أبدت له إعجابها بشخصيته وتعاطيه للعلم.. أحبت فيه تفاعله الإيجابي معها رغم ما بينهما من اختلاف

عَقدي وثقافي... شيء واحد ظل محل غموض عند رياض، وهو أن تعليقه الزواج بها بشرط اعتناقها الإسلام جعل إيميلي تَعْدل عن موقفها في قبول الارتباط به، وجدت في الأمر إهانة لمعتقدها، ولثقافة ظلت لسنوات تحملها معها. هي تحبه، نعم، ولكن أن تفرط في رصيد ديني تؤمن به وتعتقد بأشياء جديدة مقابل زواجٍ فهذا مما لم يصدقه عقلها... قال رياض مخاطبا إيميلي وهما على أبواب الانصراف من المطعم:

- إيميلي..
- نعم..
- أحبك..
- أنا كذلك...ولكن..
- ولكن ماذا؟
- شرط اعتناق الإسلام يتطلب وقتا... ليس بالأمر البسيط أن أو افق، أنت تعلم يا رياض أنني لا أقبل ممارسة شيء غير مقتنعة به..

طأطأ رياض رأسه وهو ينصت لها، قال لها:

- فكري في الأمر جيدا...
- ....
- حلمي في الحقيقة هو أن نتزوج...

نظر إليها وعيناه تبرقان تحت انعكاس أشعة المصباح الخافت، شدت إيميلي على يديه بحرارة، صمتت، ثم مسحت دمعة سالت على خدها.. وقالت له:

- لم أكن أتوقع أن الحب يتعثر بالدين والعقيدة..

- لا يتعثر، ولكنه يزداد اتقادا واشتعالا عندما تتوافق عقيدة الحبيبين..
- لم يخطر ببالي من قبل أن أفكر في اعتناق الإسلام... لم يخطر ببالي أن الحب له اتصال بالعقل..

رد رياض وهو يحاول تعليل موقفه:

- أتمنى ألا تفهمي موقفي غلطا... ولكن اعذريني.. هذا القلب يحترق بحبك، وأجد في ليلي من العناء ما لا يخطر لك على بال.. ولكن زواجنا لن يباركه والداي إلا بإسلامك...
- يمكنك أن تتخذ قرارك بمفردك... لستَ ملزما بإرضاء أحد...
- لا أستطيع ..
- إذا أنت لا تضحي من أجل قلبك..
- ليس الأمر كذلك..
- إذا...
- أنا أرغب في الزواج بك ... و أنت تعلمين مدى حبي لك... ولكن في انتظار أن تُسلمي..

****

انتهى اللقاء في ذلك اليوم بآمال معلقة وقلب مكلوم... هي تحبني نعم، ولكنها كما توقعتُ لا تضعف ولو مرة من أجل قلبها.. شخصيتها قوية وهذا الأمر ليس من صالحي في هذه المسألة.. هي لا تريد أن تؤمن إلا بما تقتنع به.. ولا تريد أن تترك دينها رغم أن نصوصه محرفة ويقوم في أغلبه على أمور غير صحيحة ... ظننتُ أن اعترافي لها بمكنون قلبي و إبراز مدى تعلقي بها سيكسر عنادها فتُقبل على دخول الإسلام، ولكن الأمر كان على غير ما رجوتُ..

أخذ هاتفه وجعل يبحث في سجل المكالمات، منذ ما يزيد عن شهر لم تتصل به، وكلما قرر الاتصال بها وجد هاتفها غير مشغل.. أما في المعهد، فإنها تخرج مسرعة بعد انتهاء الدرس على غير عادتها كما لو أنها تتعمد الأمر وتتجنب التحدث إليه... من الواضح أنها عدلت عن مشاعرها و تخلصت منها، وهي تحاول من خلال إعراضها المكشوف أن تقول لي شيئا واحدا هو أنني غير راغبة في اقتراحك ولست مستعدة للزواج بك... وديني وعقيدتي لا يمكن التساهل بشأنهما من أجل أن أقترن بك... يتألم خاطره لهذه الأفكار القاتمة.. يحس بالحسرة تنخر أعماقه.. يتسرب الندم إلى قلبه ما بين لحظة وأخرى... يود لو أن اللقاء معها تكرر فيتنازل عن شرطه ... ويحاول إقناع أبويه بالأمر... تعصره أفكار متضاربة، يحس بأن غيمة حزن سوداء تزحف على قلبه العاشق... يا ليتها تتصل، أو تكاشفني بحقيقة أمرها... قبلَت الأمر أم رفضَته، المهم أنني سأعرف ما عليّ فعله، أما أن تتركني هكذا معطوب القلب أعرج الحياة فأمر يتجاوزني ألمه ولا أستطيع له ردا..

لم يكن رياض يعلم بأن هذه الباريسية ستتمسك برأيها بهذه الطريقة وتستميت عليه، ظن أن ما كانت تغرق في قراءته من أشعار في الحب لفيكتور هيكو وبول فرلين وغيرهما سيؤثر في قرارها ولن تمضي إلا مدة وجيزة جدا حتى تقبل بشرطه الذي اشترطه عليها، ولكن الأيام الآن أرته بأنه واهم وأن إيميلي ظلت، حتى في موضوع الحب، صلبة في مو اقفها كما هي عادتها دائما... يعجبُ لنفسه كيف أنه صار يفكر مؤخرا في التنازل عن شرطه أملا في زواجهما ولم يكترث بشكل كبير لأمر الدين، ولولا أنه يعلم بأن أبويه سيعترضان عن زواجه لقَبِل بإيميلي كما هي عليه ولتكن ديانتها ما شاءت، المهم عنده خُلقها، ومعرفتها الواسعة، وجمالها الأخاذ... يعجب كيف أنه يجد في قلبه ما يجد من قبول التضحية بكل شيء على أن يتزوجا، في حين أنها

هي ليست مستعدة لتترك دينها، ولا أن تفرط في معتقدها... يؤلمه الفرق بين حالتيهما ويقرأ فيه أكثر من أمر...!

****

مرت الأيام متوالية لا جديد تحمله بين يديها، ورياض قلبٌ محبٌّ لم يستطع التخلص من طيف إيميلي، هذه التي قضت ما يزيد عن الشهرين صامتة مُعرضة عنه، أو هكذا كان يُخيل إليه.. لم تبق كعادتها قبل لقائهما في ذلك اليوم في مطعم (l'abeille) .. لم تعد تكترث لأمره، تجنبت كل الطرق المؤدية إليه، أغلقت هاتفها في وجهه أو غيرت رقمها لتتخلص من ضجيج حبه.. لم تُبْد أي فعل يكشف عن حبها الذي ادعته، ولم تتكسر مع مرور الوقت ولم ترضخ للشرط، بل إنها لم تحاول حتى مناقشة الموضوع من جديد... هذا التعالي العالي، هذا الإصرار المصر كان يجرح رياضا في كبريائه، ويقتل شيئا من عزة نفسه...

ذات مساء من مساءات شهر ماي، وعلى غير المتوقع، اتصلت إيميلي برياض الذي لم يصدق الأمر وهو يقرأ رقمها على صفحة هاتفه لحظة رنينه:

- آلو رياض...
- آلو عزيزتي إيميلي..
- كيف حالك.. أتمنى أن تكون بخير..
- أنا بخير.. و أنت؟ بخير؟
- كل شيء على ما يرام ..

قال بعد تردد:

- انتظرت مكالمتك منذ مدة... ظننتك أعرضتِ عني كليا

- ليس الأمر كذلك...
- لقد نجحتِ في تناسي الموضوع الذي حدثتك بخصوصه، ولكني لم أنجح في ذلك... ظللت دائما مُعلِّقا بصري في سماء الغيب منتظرا بزوغ خيط من الأمل أو الحياة..
- أنت واهم ...لم أنس الموضوع بتاتا.. ألم أخبرك بأنني أحبك؟
- بلى .. ولكنكِ أغلقت هاتفك، كنت تتعمدين الانصراف من المعهد بسرعة حتى لا ألتقيك... لم أظفر منك بإشارة يمكن أن تنفعني لأقول بأنك مازلت تحبينني..
- صدقني يا رياض... كان صمتي الطويل الذي امتد لما يفوق أربعة أشهر صمتا من أجل أن أتعرف على الإسلام الذي وضعتَه شرطا لزواجنا...

لم يصدق رياض ما يسمعه، أيمكن فعلا أن تكون غابت كل هذه المدة من أجل أن تتعرف على الإسلام وتقتنع به... إذا كان الأمر كما تقول فإنها فعلا تحبني، قال لها مندهشا:

- أفعلا ما تقولينه يا إيميلي...
- أنت تعرفني بأنني لا أكذب..
- وما هي النتيجة التي توصلتِ إليها؟

طرح السؤال وجعل ينتظر جوابها مدة وجيزة خالها دهرا كاملا غير منقوص، كرر السؤال وهو يزدرد ريقه بعدما تبدى له بأنها تتعمد التباطؤ في الرد:

- إيميلي...أنا أنتظر جوابك...ما هي النتيجة التي خلصت إليها؟
- لقد كانت الأشهر الماضية فرصة لأتعرف على دين الإسلام.. اشتريت كتابا يترجم بعض معاني القرآن، درسته درسا، وقرأته

مرارا...كما اشتريت كتابا للسيرة باللغة الفرنسية.. تعرفت على النبي محمد...

تهللت أسارير رياض وهو يسمع بأذني قلبه ما تقوله إيميلي، أحس بأن الفرحة تتضخم فيه وتسري في ثناياه وتسبح في أعماقه، قال لها بصوت مخلوط بالفرحة:

- ثم ماذا؟
- قمت بعد ذلك بشراء كتاب يقارن بين الأديان.. ويقارن بين الكتب السماوية.. لم أكن أتوقع أن التوراة والإنجيل محرفان إلى هذا الحد... وحده القرآن وجدته صامدا أمام أسئلتي... وجدته يجيب عن علامات استفهامي، وجدته يكشف جملة من القضايا الغامضة التي صاحبتُها معي في حياتي كغيمة أو استفهام محنط لا جواب له...
- والله إن الأمر لمفرح...ما أعظمك عزيزتي...
- اتركني أواصل حديثي... وجدت القرآن خطابا غير عادي يمس داخلي...يقرع سمعي.. يحرك رواكدي ويذكرني بقضية الحياة التي نعيشها... أما عندما قرأت سيرة النبي، علمت بأن هذا الرجل لا يمكن أن يكون كاذبا، أكدتْ أفكاري هذه جملةٌ من شهادات بعض المستشرقين الذين بحثوا في سيرة النبي ثم أدلوا بآرائهم في حقه كمايكل هارت، وإدوار مونته، والشاعر لامارتين...

قاطعها رياض وقد اغرورقت عيناه بالدموع بعدما أحس بفداحة الذنب الذي كان سيُقدم عليه لو أنه تنازل عن شرطه، قال لها:

- هل وسعك هذا الوقت لتبحثي عن كل هذه الأمور ؟

- نعم رياض... صدقني، كنت لا أنام إلا قليلا.. وجدت في البحث وتقصي الحقائق لذة لا تضاهيها لذة، وكنت أشعر و أنا أبحث عن الحقيقة بفرحة عارمة.. كان بحثي عن الإسلام بحثا عن المعنى، عن الحقيقة التي نسيها الغرب.. بحثا عن الذات... لقد قمتُ بمطالعة حياة بعض الفلاسفة والمفكرين الذين أسلموا كمارتن لنجز ومايكل ولفي سيكتر... تأثرتُ كثيرا بحياتهم وبتغيرهم الجذري الذي طال حياتهم.. ذرفتُ دموعا كثيرة و أنا أقرأ عنهم وعن أسباب اقتناعهم بالإسلام وتأثرهم بحياة الرسول...

كان رياض على الجهة الأخرى للهاتف يبكي.. تأثر كثيرا بما صارت تحكي له إيميلي.. أحس بشيء من الفخر لأنه كان وراء بحث إيميلي وتأثرها... قال لها بصوت ملون بنغمة بكائه:

- إذاً أسلمت يا عزيزتي...

ردت ودموع الفرحة تسيل على خدها المورد:

- وماذا بقي إذا اتضح النور من الظلمة إلا أن أعلن الانتماء... أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله..

لم يتمالك رياض نفسه فصرخ بأعلى صوته:

- الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر... الحمد لله، أحبكِ الآن أضعاف ما أحببتك من قبل عزيزتي إيميلي...

كانت إيميلي ساعتها تتدفق دموعا، لم تكن تعلم أن حبها سيقودها لتسلخ حياة بتصوراتها وعقيدتها وحمولتها وتلبس أخرى رأت فيها المعنى فياضا... رأت فيها الحقيقة المنسية.. قالت وهي تريد إنهاء المكالمة بعدما غلبتها نوبة البكاء:

- رياض... أتركك الآن... موعدنا غدا بعد نهاية الدرس..
- إلى اللقاء عزيزتي... ألف مبروك أيتها الحبيبة .. موعدنا غدا..

وضع رياض الهاتف فوق مكتبه غير مصدق بعدُ حقيقة هذه المكالمة وما رشت به أفقه من أنداء، حلق بفكره بعيدا، أسكره الخبروأحس بأن قلبه لم يتحمل دفقة الفرحة التي غمرته، لم يتوقع أن هذا الغياب الذي دام لشهور سينتهي بإخراج حُلمه إلى الحياة... لقد أسلمت إيميلي.. وفي إسلامها انتعاش الأحلام وزوال غيابات ظلت مخيمة على أيامه.. إن هذه اللحظة لا تقدر بثمن، أحيت ما يبس من ملامح آماله، وبثت الروح فيما تجمد من قلبه... كان يعلم بأن إيميلي شخصية نادرة ... لا تخطو خطوة في خريطة حياتها حتى تدرسها جيدا، كانت ترفض، فيما ترفض، أن تَرتجل حياتها، أو تُقدم على أعمال غير مقتنعة بها.. اليوم، لحظة فاصلة في عمرها كما في عمري، كم تمنيت في قرارتي أن أحقق مطلب هذا القلب الذي بات خفاقا في صدري.. لستُ أدري أكان يضخ الدم أم كان يضخ الحب مخلوطا بالمعاناة، ما أدريه أنه الآن يُعلن في دواخلي أعياده و أفراحه، ويستأنس بحظه الو افر من السعادة.. الحب، في العادة، أعوج أو أعرج.. يتعلق قلب الإنسان بشخص لا يراه في الغالب يبادله نفس الشعور في اللحظة التي يكون هو محبوبا من قبل شخص آخر ... قلبي تحقق له استثناء القاعدة.. تعلق بقلب بادله الشعور نفسه.. وفي هذا قدْر كاف من الحياة.. من السعادة التي تُبقيه على قيد الأمل فيما تبقى له من الحياة..!

****

فضل رياض ألا يُحدث إيميلي إلا بعد الخروج من المعهد، ولذلك ما إن انتهت الحصة حتى توجه مسرعا صوب الباب الرئيسي للمعهد وظل ينتظرها في الخارج مقتعدا صبره... اليوم سيلتقيان على انفراد من جديد.. سيلتقيها بهيئتها الجديدة التي تبدت له بها في أرجاء المعهد مع بعض زميلاتها... لقد تبرأتْ فعلا من ماضيها، تخلصت من لباسها الضيق الذي كان يكشف تضاريس جسمها وخريطة انحناءاتها... ارتدت خمارا، وعباءة واسعة ولم تجئ كعادتها مُثقلة الوجه بالأصباغ والألوان..... ابتسم وهو يحدث نفسه بعدما تذكر الجواب الذي قابلت به أسئلة بعض الطلبة المستهزئين بها، قالت لهم وقد تحلقوا حولها مندهشين من لباسها وخبر إسلامها: ألستم تدعون الإيمان بالحرية الفردية وأن الشخص له الحق في أن يلبس ما يشاء ويفعل ما يشاء شريطة ألا يؤذي الآخر..؟ فما بالكم إذا تقحمون أنفسكم في أمر يخُصني..؟ هل الحرية فقط في النهد البارز والخصر المكشوف...؟ هل الحرية فقط في إسدال الشعر وكشفه وارتداء ملابس قصيرة لا تصل حد الركبتين..؟ لباس الخمار هو الآخر حرية، وارتداء الملابس الواسعة التي لا تصف ولا تشف هو الآخر حرية... راجعوا أنفسكم وقناعاتكم قبل أن تفتحوا أفواهكم ساخرين ومستهزئين...!

ظل رياض غارقا في تفكيره إلى أن لمح إيميلي آتية في اتجاهه، ابتسم في وجهها وتقدم صوبها، تبادلا التحية وأراد أن يهوي على خدها مقبّلا كعادته قبل شهور، لكنه صُدم عندما منعته إيميلي.. ما الذي وقع؟ ألم أكن أقبّلها من قبل أم صارت تكرهني؟ أحس بأن يدها التي أبعدته عن خدها آلمته في قلبه كأنها سيف أخرجته للتو من غمده وغرزته فيه.. ظل مندهشا بعدما سقطت ابتسامته على الأرض، قالت له وهي تسعى إلى تبرير فعلتها:

- رياض... ألسنا مسلمين؟

- بلى...
- إذا هذا أمر لا يجوز طالما ليس هناك بيننا ميثاق شرعي..

وقع عليه كلامها كحجارة من سجيل.. اعتصره الألم، وشعر بأن الدنيا دارت به... لم يستطع التفوه بكلمة.. أنا أردتها أن تسلم.. ولكن.. تضاربت الأفكار في ذهنه، وماجت في قلبه مشاعر شتى.. قال لها محاولا دفن الموقف الحرج الذي وقع فيه:

- طيب... الكل دُهش بقرار إسلامك..
- لا يهمني الآخر.. طالما أنا مقتنعة بموقفي..
- معك حق...
- الاهتمام بآراء الآخرين أكثر من اللازم مرض..

حاول رياض أن يبدل مجرى الكلام بعدما وجده عاليا أكثر من اللازم.. قال لها:

- فرحتُ كثيرا لاعتناقك الإسلام... حُلمنا سيتحقق...
- شكرا لك... أنا كذلك جد مسرورة.. ولكن يجب أن تفرح لأنني أنقذت نفسي من الضلال والغي أكثر من فرحك بأننا سنتزوج... أجمل شيء اكتشفته في الإسلام أن معانيه عالية، وأنه لا يبالي بالمظاهر وما يدور في مجالها من متعلقات الجسد ... الإسلام يرفع أهله عن معاني التراب...
- أنا فرحت للأمرين معا لإسلامك ولزواجنا الذي سنخرجه إلى الواقع عما قريب...
- الحمد لله.. أنا مدينة لك يا رياض بما وقع في حياتي من تغير، أحسَسْتُنِي قد خرجت من كهف ذاتي وحلقت عاليا في فضاء

شاسع رحيب.. مشكلة هؤلاء الذين لا يملكون عقيدة واضحة بخصوص ما بعد الموت أنهم يقضون حياتهم بمعاني التراب، لا يرفعون أبصارهم ولو قيد أُنمُلة.. تزعجهم أبسط المشاكل وتزلزلهم آفات الدهر..

قال رياض ممازحا وهو يخفي علامات استفهام كثيرة تدور في ذهنه:

- أراك قد صرت حكيمة بين عشية وضحاها...!
- الحكمة هي الأصل في الإنسان... ولكنها قد تضيع منه كلما أقبر وقتَه في تراب ذاته وجعل ينظر إلى الحياة من زاوية الطين!!

سار بهما الحديث في دروب مختلفة من الأفكار... تحدثا عن أشياء كثيرة، بدت فيها إيميلي لرياض خلقا آخر.. هو أراد منها أن تعتنق الإسلام ولكنه لم يردها بهذا الشكل وكأنها دانت بإسلام جديد عنه لا يعرفه.. تبدت له مقتنعة بمبادئ الإسلام أكثر منه في بعض الأحيان... لقد كشفت له في دينه عن حقائق يجهلها رغم أنه مسلم أصالة... كانت تسأله، وعندما تجد لسانه قد تجمد ولم يعرف إجابة، تقدم الإجابة وكأنها أرادت بفعلها ذلك أن تنبهه على ضعف علمه بعقيدةٍ يحملها جهلا فوق ظهره.. عرّفته بفلسفة الإسلام في النظر إلى الحياة وقضية الموت والمصير...

لم يكد الحديث ينتهي بهما إلا بعدما أحدثت الشمس شفقا في عتبات السماء معلنة عن اندحار النهار و إقدام الليل. قال رياض لإيميلي وهما يعبران الشارع الكبير:

- عزيزتي إيميلي...
- نعم..

- أفضّلُ أن نسافر في الأيام القريبة للمغرب، و آنذاك تتعرفين على أسرتي ونعلن زواجنا..

ردت إيميلي مسرورة:

- فكرة جميلة .. ليس عندي مانع.. بدوري أحب التعرف على أسرتك وتعجيل الزواج..

ابتسم رياض لقولها، شعر بقلبه يرقص داخله، التفت إليها، ثبت عينيه في صفحة وجهها المشرق، أحس بالسعادة تدب في أرجائه، ود لو يقبلها لولا أنه تذكر رد فعلها السابق، قال لها بصوت خافت أربكته الفرحة:

-إذا حاولي إعداد وثائقك اللازمة.. وسأخبرك قريبا بموعد الرحلة .

*****

لم يبق على وصول الطائرة إلى مطار فاس سايس الدولي إلا خمس دقائق، كان رياض يطير فرحة.. فحلمه عما قريب سيلمس الو اقع تماما كما ستلمس هذه الطائرة الأرض بعد قليل.. يسترجع ذكرياته واحدة تلو الأخرى، لم يخطر له ببالٍ لحظة رحيله إلى باريس أنه سيعود منها تصحبه فتاة بجمال باريسي فاتن اختارها قلبُه لتكون شريكة حياته.. أحب فيها كل شيء.. معرفتها الواسعة، أنوثتها المشرقة، شخصيتها القوية وطريقة تجاوبها مع الحياة ... يبتسم في عمقه، ينظر إلى إيميلي جنبه، وجدها لم ترفع بعدُ رأسها عن كتاب غرقت في قراءته منذ أن حلقت بهما الطائرة..

بعدما وصلا، وجدا في انتظارهما الحاج إدريس والحاجة نزهة، أسرع رياض في اتجاههما وهو يقول لإيميلي حاثا إياها على الإسراع في الخطى:

- إيميلي... تعالي هنا.. إنهما والداي

تبعت إيميلي رياض وهي تحاول تجاوز شيء من الخجل أحست به يدب في أوصالها.

- ولدي الحبيب ..رياض..
- أمي الغالية ... أبي العزيز... اشتقت إليكما..
- لقد غبت كثيرا عنا يا ولدي... لم نَعْتَد فر اقك

عانق رياض والديه كثيرا، قبلهما مرارا، سالت دموعهم جميعا، دموع الفرحة التي ولدها اللقاء بعد غياب دام موسما دراسيا كاملا.. أما إيميلي فصافحت الحاج إدريس والحاجة نزهة وجعلت تتأملهما.. أحست بأن عالما أقامته في عقلها أخذ يتآكل... علمت بأن توقعاتها وجملة رسومها التي رسمتها في عقلها عن أبوي رياض خدشها الو اقع دفعة واحدة.. تدور بعينيها في أرجاء المطار حتى تخفي علامات استفهامها وتعجبها المتناسلة.. كانت تظن أن تشدد الوالدين على أن تكون زوجة ابنهما مسلمة يعني أنهما ملتزمان بمبادئ الإسلام جملة وأنهما يسعيان إلى تمثلها في حياتهما... هل المسألة إذا مسألة مظاهر فقط؟ هل العقيدة عندهما مجرد قناع؟ أسئلة كثيرة حفرت أخاديد في عقلها وجعلتها تتجمد في دواخلها.. شعرت بأن الو اقع مرير.. هي عندما أسلمت فإنها حاولت جاهدة أن تتمثل الإسلام في حياتها ما استطاعت إلى ذلك سبيلا... عجبت لأم رياض، امرأة في الخمسينيات من عمرها تسجن جسدها في لباس ضيق يكشف كل منعطفاته.. أما الحاج إدريس، فرجل لولا أنه رأى مني ابتعادا لهوى يعانقني ويضم صدري إلى صدره... هذه عاداتي قبل

أن أتعرف حقا على الإسلام، أمَا و إني قد أسلمت فلا رجعة بعدُ لزمن دفنته بأشيائه وتاريخه وفُهُومه..!

***

لم تقض إيميلي إلا أسبوعا واحدا مع أسرة رياض حتى علمت بأن المسلمين في حاجة ماسة لبث روح الإسلام من جديد في ذواتهم وحياتهم فالألفاظ والشعارات لن تغني عنهم شيئا... مازالت تَذْكُر، أنها لحظة تعرفت على حقيقة الإسلام واجهتها أسئلة كثيرة لم تجد لها جوابا...كانت تتساءل كيف يمكن لأمة تدين بهذا الدين القويم أن تقبع خلف عباد البقر ومن لا دين لهم..؟ كيف يمكن لها أن تكون في ذيل الأمم وبين يديها كتاب عظيم فيه خبرُ الإنسان، وقصة الحياة، وقضية الفناء...؟ كيف لأمة رسولها رجلٌ شهد الأعداء بفضله وسطع نجمه في سماء البشرية أن تظل في مؤخرة الركب؟ تساءلت كثيرا.. وتساءلت.. وتساءلت.. ولكنها الآن علمت بأن المسلمين في حاجة إلى الإسلام.. في حاجة إلى ما يعتقدون أنه في حوزتهم... لقد لخصت لها أسرة رياض واقع المسلمين ... أسرة يقتل أغلب أفرادها الوقت قتلا.. يهدرون أزمنتهم في القيل والقال... اكتشفت بأن أبوي رياض اللذين ظلا متشددين بخصوص قضية إسلامها لا يركعون لله ركعة.. الحاج إدريس يبيت أغلب الليالي رفقة أصحابه في الطابق العلوي يعاقرون الخمر ويفتضون صمتَ الليل بضجيجهم وضحكاتهم المتعالية... لا يبالون بجيرانهم الذين اشتكوا مرارا... ورياض، هو الآخر، اكتشفت بأنه لا يصلي... أما الحاجة نزهة، فاكتشفت من خلال حوارها معها أن علاقتها بأبناء عمومتها متأزمة.. عجبت كيف أنها قطعت رحمها وأعرضت كليا عن التفكير في حل لتعود المياه إلى مجاريها... تتساءل ماذا بقي من الإسلام إذا؟ الشهادة؟ نعم هي مهمة.. ولكن صِدْقها بما يتأسس عليها.. !!

ذات ليلة ساهرة، فكرت إيميلي كثيرا.. وجدت بأن الحل هو أن تنسحب من حياة أسرة رياض قبل أن يحددوا يوم كتابة العقد... ليس من عادتها أن تؤسس لحياتها بأشياء لا تقنعها... المسألة إذا تحتاج إلى مراجعة وتفكير.. والاقتران برياض يحتاج إلى شروط.. تضحك في خاطرها، كيف أنها صارت هي من يحدد الشروط، هي التي، قبل شهور، كان يُشترط عليها اعتناق الإسلام والدخول تحت ربقته... رياض، بعد إسلامها، لم يعد ذلك الشاب الذي تحلم به خاصة بعدما عاشرت أسرته وخَبِرَتْ تفاصيل حياته.. ولأنها تكره النفاق، الخداع، ارتداء الأقنعة وتنويع الوجوه، فإنها فكرت في مصارحة رياض بما صار يجول في خاطرها مؤخرا... كانت قبل أن تُسلم صريحة، وبإسلامها ازدادت صراحة وكرهت التخفي وراء الكلام الفارغ والعبارات الهشة...!

*****

في الصباح الموالي، شرعت إيميلي في جمع حاجياتها وترتيب أشيائها في الحقيبة دون أن تخبر أحدا بما تعتزم فعله، لم يخرجها من خواطرها التي كانت تغزو ذهنها إلا اقتحامُ رياض الغرفة على فجأة منها. نظرت إليه في ذهول وقالت مستغربة:

- تدخلُ غرفة الآخر دون استئذان؟!

انزعج رياض لملاحظتها، قال لها بشيء من الانفعال:

- لقد كثُرت ملاحظاتك إيميلي... لا تكوني متشددة..
- لستُ كذلك..
- ولكنك تواجهينني لحظة بعد أخرى بملاحظات لستُ أدري كيف تخلصين إليها... ولذلك أنصحك بألا تتشددي... كلنا مسلمون..!!!

- رياض... أنا لم أَرْمِك بكُفْر... على العكس من هذا، أنا مدينة لك إذ كنتَ السبب وراء ما صرتُ عليه حاليا.. ولكنني فقط أريد أن أقول لك بأن الالتزام بمبادئ الدين ليس تشددا...
- هذا فهمك الخاص...
- ليس فهمي الخاص... هل تسمي الاستئذان قبل دخول غرفة الآخر تشددا؟ هل تسمي احترام الجيران وصلة الرحم تشددا؟ هل تعتبر الحياء والعفة والحجاب تشددا؟ هل تعتبر الصلاة تشددا؟ هل تعتبر استغلال الوقت وعدم قتله تشددا؟ إذا كان الأمر في نظرك تشددا فيجب أن تجيبني عن سؤال واحد: ما هو الإسلام؟ أنتَ تعرف يا رياض أنني كنتُ أحيا حياة غير هذه... كنتُ أشرب الخمر، وكنتُ لا أتورع عن المبيت في الحانات ..كنتُ أحيا بمنطق اللهو والعبث.. ولكنني بمجرد أن أعلنتُ إسلامي تبدلت حياتي جملة، لقد قتلت فيَّ كل ما يذكرني بإيميلي القديمة... صرتُ الآن أعيش الدنيا بمنطق الآخرة... أتعامل مع الآخر بما يحفظ أخوتنا وسلامتنا ويضمن حسن صلتنا بالله تعالى ...

ظل رياض يستمع إلى حديثها وقد تجمد في مكانه، لا يدري ماذا حصل له، واصلت إيميلي وقد وجدت سكوته فرصة لتفرغ ما في قلبها:

- رياض... لقد صرتُ خلقا آخر.. ولا أسمح لنفسي أن أعود إلى الوراء ولو خطوة واحدة.. أدعوك يا رياض إلى التفكير فيما أقول لك... حاول فقط أن تُنصت لضميرك.. أن تتساءل لماذا نختار الإسلام وليس غيره؟ حاول أن تسأل نفسك أين يتجلى الإسلام في حياتك؟ هل تكفي فقط شهادتك بوحدانية الله وبنبوة محمد؟ أنت مسلم نعم، ولكنك يا عزيزي لا تصلي.. أنت مسلم نعم، ولكنك في

الآونة الأخيرة صرتَ تقتل الوقت كثيرا.. أنت مسلم نعم، ولكنك قاطع رحم... أنا أتحدث معك بهذه اللغة الواضحة التي قد تكون حادة بعض الشيء وتجرحك ولكن كن على يقين أنني أحبك..

أكملت إيميلي حديثها وقد فرغت كذلك من جمع أمتعتها، نظر إليها رياض وقد استفاق من غفوته، لقد ذهب به حديث إيميلي بعيدا.. طرق أبواب مغلقة في ذهنه، وجعله يسأل ذاته أسئلة لم يهتد من قبلُ إليها... نظر إلى إيميلي وقال لها بصوت خافت:

- ولكن لماذا تجمعين متاعك... أنا أو افقك الرأي...

ردت إيميلي بنوع من الحزم:

- سأعود إلى باريس...

فتح رياض فمه مندهشا، تكسر شيء ما في عُمقه، تبدت له أحلامه مبان تتحطم.. قال لها:

- ولكن مدة مكوثك معنا لم تنته.. ثم إننا كنا بصدد بعض الترتيبات ولم نعقد قراننا بعد...

حنت إيميلي رأسها وقالت:

- أعلم ذلك...
- إذا لماذا الذهاب؟ هل عدلْت عن فكرة الزواج..؟ سأموت إذا كان الأمر كذلك..
- لم أعدل عنها...ولكن ...
- ولكن ماذا؟ ...
- أرغب في التفكير في الأمر مجددا..
- ولكننا اتفقنا...

- ولكننا لم نحسم الأمر...
- إيميلي... أرجوك.. فكري فيما تقولين..

مسحت إيميلي دمعات عجزت عن إخفائها ثم قالت:

- رياض...
- نعم... تكلمي... لقد تحطمَتْ دواخلي.. أحس بأنني أتصدع...
- رياض سأقول لك كلمة تشبه تلك التي وجهتها إلي لحظة تناولنا العشاء بمطعم (l'abeille) وكانت دافعا للبحث عن الإسلام ثم اعتناقه... أقول لك: أنا مستعدة للزواج بك ... و أنت تعلم مدى حبي لك... ولكن في انتظار أن تتمثل حقائق الإسلام ومبادئه وتعلم أي كنز أنت تحمله!

قالت الجملة وسحبت حقيبتها خلفها و انصرفت...

أما رياض فظل مشلول الجسم أمام قولها، خال نفسه أصبح جثة هامدة.. شعر بدوار أفقده التوازن.. ظلت جملتها تملأ رأسه وتتردد في مسامعه (في انتظار أن تتمثل حقائق الإسلام ومبادئه وتعلم أي كنز أنت تحمله).. أراد طردها من ذهنه.. أراد أن يتجاوز وعكته ولكن قواه خارت، فسقط على السرير يبكي والأسئلة تسبح في فضاء الغرفة أمام عينيه..!

١٩ مارس ٢٠١٧ م / القصر الكبير

يَزّي...!

(يَزّي) امرأة حقيقية بخيوط الأسطورة وألوانها.. اِمرأة تخضبت بألوان الطيف، تقرأ من خلالها الحياة، والمعاناة، وفداحة الوقت المخدوش، المجروح..!

يزي، امرأة تلخص حكايات كثيرة، وتفجر حكايات ملخصة، مهمشة، قابعة في الظل، في السكون الذي يُولَّى بالظَّهْر...!!

يزّي، اسم مجروح، أصله (زينب) ولكن الحياة طوت صاحبته ستين طية، وطوى الناس اسمها طيا، فصار الاسم (يزي) كلغز مستغلق تحمله صاحبته فوق جبينها شامة على قَدرها الرهيب الذي جعلها تخلد في ذهن الكثيرين، كما خلدت في ذهني...

يزي، فتحتُ عين طفولتي عليها: امرأة في الأربعينيات من عمرها، تميل إلى البدانة، طويلة بعض الشيء، سمراء البشرة، سريعة الخطو، في ملامحها تضاريس الوقت الذي عَبَرَتْه بعيشها وعبرها بنوائبه. كانت غريبة في أطوارها، في أشيائها، في ملابسها وفي تفاصيل حياتها. امرأة قضت الموت حية، ثم دخلت الحياة بعد رحيلها مخلفة وراءها غُبارا سميكا، مُظلما، مُعتما...

****

كنتُ ذلك الطفل الصغير الذي يمتطي السؤال، يصاحب الدهشة، وتفتنه الملاحظة. وأنا لحظتها لم أتجاوز العاشرة، كنتُ أسعى جاهدا لأعثر لكل أسئلتي التي يتفجر بها ذهني ما بين فينة وأخرى عن جواب أسد به فجوةً كثقبٍ في ورقة عقلي...هكذا كان يبدو لي الأمر حينها.

كل الأمور التي استفزتني ساعتئذ في عالمي البسيط عثرت لها على تفاسير سدَدْت بها ثقوبا كنت أتخيلها تتكاثر في عقلي.. تفاسير أغليها كونته من خلال ما كان يتسرب إلى ذاكرتي ووعيي من خلال لعبي مع أصحابي، ومكوثي قرب إخوتي، ومصاحبة أبي، أو الاتكاء على حضن أمي... كنتُ أعثر لأسئلتي على أجوبة وإن كانت أجوبة شوهاء، بعيدة غالبا عن الواقع والصواب، ولكنني كنت أراها لحظتها أجوبة مُقْنِعَة تسمح لي بالاستمرار في العيش، لأنني وقتها– شأن الأطفال جميعا – كان يقلقني السؤال إذا ظل مفتوحا على الخواء لمدة ممدودة.

وحدها يزي، هذه المرأة الأربعينية، الحمقاء، (المجنونة)، أو (العاقلة) أكثر من اللازم، وحدها خرجت عن مداري، جرت بعيدا عن تصميماتي الصغيرة... وحدها، ظلت نشازا في القرية التي كنتُ أسكنها، أو هكذا كنتُ أراها. استعصت على الفهم، على التفسير، وبقيتْ كلما وقع بصري عليها أو وقعَت عليه، بقيتْ سؤالا جبارا تتضاءل أمامه أجوبتي البسيطة وتصغر إزاءه تفاسيري ... وحدها يزي، بلباسها المهترئ، بهلوساتها التي تفجرها عَلَناً في وجه الناس، بملامح الغضب التي تلبسها قناعا أبديا،.. وحدها ظلت خارج فهمي، تفلتت من يدي، ولذلك كثيرا ما كنتُ أتضايق برؤيتها لأنها كانت تُشعرني بأنني صغير، وتشعرني بأنني لم أستطع بعدُ إدراك أبعادها ولا فهم حقيقتها أو سر قصتها.

في بعض الصباحات الباكرة، كانت تتأبط مِحَشَّهَا، وتلقي فوق جسدها إزارا مُثقلا بآثار الزمن، وتسير بخطواتها السريعة في اتجاه (الغابة) لحش الكلأ. كنتُ – أحيانا وليس دائما - كنتُ أجلس القرفصاء أمام بيتنا وأتأمل يزي، هذه الظاهرة، أتأملها وهي تقطع الطريق في اتجاه الغابة، كنت أتتبعها بعيني حتى تختفي بعيدا وتبتلعها الطريق... كانت تمرّ، حاملة كومة من

الأسرار، تدفعها حرارةٌ ما، يكويها هم فائق، قاهر، حاد... توقعتُ هذا من زفراتها التي كانت تتناهى إلى سمعي، من همهماتها، من صراعاتها مع الطريق التي تدكها دكا بقدمين تنتعلان حذاء مطاطا ينطق بألف كلمة، ويختزن في التراب الذي يعتليه تاريخا كاملا بمده وجزره!

لم يكن مرور يزي الخاطف أمام عيني في بعض الصباحات الباكرة هو ما يستفز أسئلتي لتتناسل في داخلي من جديد، هجومها المباغت على ملعبنا ونحن نلعب وقتها كان هو الآخر يُربكني، يشل الإحساس في عمقي، ويدفعني لأن أراها على مقربة مني رغم ابتعادها عن فهمي. أذكرُ أنه كلما هجمت على ملعبنا الصغير الذي كنا نتقاذف فيه الكرة، إلا وانتابني خوف عميق، فمحياها وحده كان يُخيف بما يرتسم فوقه من جُرح، وما يتسم به من شحوب... كانت تتوسط ملعبنا، تنظر هنا وهناك، ترفع يديها عاليا وتشرع في الصراخ والبصاق يتطاير مِن فيها... تصرخ بشكل حاد، تتناثر كلماتها مِن فيها، كما البصاق، بلا نظام ولا ترتيب ولا خيط رابط... نُعلق أبصارنا الوَجِلة فيها وننتظر نهاية عرضها التراجيدي لنستمر في لعبنا البريء!

مسجد القرية هو الآخر لم يسلم من عصف يزي، كانت تهجم عليه بصراخها ما بين فينة وأخرى، تقتحم المصلى، ترسل تيار كلامها العصي على الفهم، تتوعد الناس بالخراب، تصرخ وتصرخ ثم تغادر المصلى إلى الطريق المؤدية للغابة، وهي مازالت ترفع يديها عاليا، وتذهب برأسها يمنة ويسرة وقدماها تسحقان من تحتها الأرض.

لم تكن يزي تبرح بيتها إلا قليلا، ولذلك كانت تغيب عن ناظري الأسبوع والأسبوعين، ولكنها إذا خرجت تعبر أزقة القرية كالعاصفة، متوعدة رجال القرية بالويل، وبأنها ستشكوهم إلى القاضي أو العامل...

كذا كانت تقول وهي تجوب دروب القرية هنا وهناك والناس ينظرون إليها بمشاعر متضاربة.

ما كان يُحيرني، هو أن يزي هذه لم تكن حمقاء بما في الكلمة من معنى، وإلا فكيف تذهب إلى سوق المدينة بمفردها وتشتري لها ما تسد به جوعها من خضروات ذابلة... من أين لها بالمال؟ لماذا تتبدى من بعيد كأنها امرأة سوية ثم عندما تتبعها بعينك وملاحظتك يظهر لك حُمقها الواضح، هتافها الصارخ، كلامها المبعثر، صراعها مع إنسان مجهول، تتوعده دائما في كلماتها المتقطعة بالويل وبأن (الله كاين).

****

ذات مساء شتوي والريح تعصف مصحوبة بزخات مطرية، تناهى إلى سمعي صراخ يزي في الخارج و أنا أتوسد فخذ أمي، وجدت اللحظة مواتية لأن أسأل أمي عن سر هذه المرأة:

- مّا ...
- نعم أوليدي...
- مَالْ يزي؟
- مسكينة هبيلة... هي امرأة حمقاء... الله يعفو
- وما السبب وراء حمقها؟
- الله أعلم...
- تختلف عن الحمقى الذين نعرفهم واحدا واحدا...

كفت أمي عن خياطة ثوب كان بيدها ونظرت إلي:

- ما الذي تقول؟
- قلت لك يا أمي يزي تختلف عن الحمقى ...

تنهدت أمي وقالت:

- الله أعلم يا بني...

لم أجد عند أمي جوابا، ولا عند غيرها وكنتُ أشعر في عمقي بأن هذه المرأة تقهرني بلغزها، تصفعني بغموضها، تثير أكثر من شيء في ذهني بحالاتها التي تعرضها علينا عرضا.

****

قطعتُ مرحلة مهمة من عمري وظللتُ رغم ذلك أحاول فهم يزي، لماذا تصرخ دائما بكلمات كلها وعيد... لماذا يصل بها الحد أحيانا إلى التفوه بكلمات بذيئة، لماذا تكره الرجال، لماذا تتوعد الناس بالهلاك وبالشر المستطير؟ ثم لماذا أصادفها أحيانا وهي في طريقها إلى المدينة هادئة، صامتة، لولا ثيابها المتسخة وحركاتها المثيرة لحسبتها امرأة كباقي نساء القرية... أشياء كثيرة كانت تجعلني على دراية بأن هذه المرأة تخفي وراءها سرا رماديا، عاملا جبارا من عوامل نكبتها!

ذات ظهيرة، سمعتُ صراخا خارج البيت يتعالى فعلمتُ بأنها يزي، خرجتُ بسرعة لأشاهدها وفي نفسي هذه المرة رغبة ملحاحة لحفظ جملها القصيرة، كلماتها المبعثرة... صممتُ، على أن أحفظ عباراتها أو أقوم بكتابتها على ورقة والعمل على تأملها والبحث عن خيط رابط بينها رغم ما تبدو عليه من تفرق وتنافر. كنتُ قد عزمت على التنقيب في لغتها المهترئة وكلماتها المخدوشة عن سر حُمقها، عن سر حالتها العجيبة، عن سر غضبها الذي يتلبَّسها منذ فتحت عينَ طفولتي عليها.

خرجتُ ووجدتها تخاطب الفراغ، تصيح باكية، تشير ببنانها إلى السماء، تجري قليلا ثم تتوقف وتولي وجهها صوب بيت أحد السكان، تفجر أمامه دموعا تجري من فوق خديها كالأنهار، تستغيث، يعلو صبيب سخطها فتتحول عن البكاء إلى السب والشتم... لم تلبث إلا دقائق قليلة حتى أفرغت فيضَ أحاسيسها الساخن فصمتت مسمَّرة في مكانها قليلا قبل أن تنصرف في اتجاه بيتها المطل على المقبرة.

دخلتُ البيت مائج المشاعر، تهزني الفرحة لأنني سجلت كل عباراتها في ورقة، وتسقطني على الأرض حالتها المأساوية التي صارت تجرح فيّ - أكثر من ذي قبل - عروقا و أفكارا. استشعرتُ لحظتها قيمة ما أملك، فوحدها هذه الورقة، ووحدها هذه الكلمات المتقطعة والمتقاطعة إذا استطعتُ فك طلاسمها سأعثر عن حقيقة يزي، سأضع يدي على جرحها، سأقدم لنفسي إجابة عن سؤال قديم، سأقتل فضولا يتنامى في داخلي يوما بعد يوم.

****

بعدما دخلت عبارات الورقة بكامل تركيزي خرجت منها و أنا جذلان بما استنتجته، فما توقعته هو نفسه الذي كشفت لي عنه العبارات خاصة بعدما كنت أسترجع في ذهني الهيئة التي كانت تنطق بها يزي جملها وتحفر بها الهواء الصلب. لم تكن الكلمات إذا قولا أجوف، لم تكن فارغة كما يُتوقع، كانت على العكس من ذلك ممتلئة عن آخرها بالأشجان والقروح بما جعلها ثقيلة حادة. لقد خلصتُ إلى أن في كلامها قصة متناثرة أحداثها، قصة دامية، نازفة، كريهة، صادمة إلى حد جعل صاحبتها تفقد عقلها وتسبح بقية عمرها في غياهب الحمق مهيضة الجناح منخورة الفؤاد.

لم تكن كلماتها متنافرة كما توهمت منذ زمن، ولم تكن عبثية كما اعتقدت، على الضد من ذلك كانت منسوجة بخيط خفي، منظومة بخيط من الواقع الجارح والمعاناة الصارخة والألم الحاد. وجدت بأنها كلمات تلخص جُرحا لحق يزي، أفقدها العقل وتجاوز حد إدراكها وصبرها فألحقها بعالم الحمقى منذورة للقدر بخيره وشره. الكلمات تقول بأن رجلا ظلمها ظلما شنيعا، أن (سعاد) هربت ... أن المقدم والقاضي (معارفين والو) أن امرأة اختطفت منها قلبها... هذه الاستنتاجات التي خلصتُ إليها كانت تحتاج هي الأخرى إلى صبر عتيد للتأكد من صحتها، ومعرفة أشياء مازالت غامضة، فمن تكون (سعاد) هذه؟ ومن هو هذا الرجل الذي ظلمها حد الوجع الفادح؟ ومن هذه التي اختطفَت قلبَها؟

حاولتُ، بعدما تبدت لي بعض الخيوط من قصة يزي، أن أقترب من هذه المرأة علني أظفر بالقصة كاملة و أتوصل إلى ما تخفيه في جوفها من ألم، حتى أقوله، على الأقل، نيابة عنها للناس بعدما عجز لسانها و أثقله الحمق فصار لا ينطق إلا بكلمات، لا يحسبها من تقع بأذنه إلا أنها كلمات مشتتة لا ينظمها معنى معين. كنتُ على يقين حينها بأن الاقتراب أكثر من هذه المرأة سيرفع ستارا مسدلا عن جزء قاتم من عُمرها، سيريني ما أكمل به رسم لوحة تراجيدية في مخيلتي كنتُ قد بدأتُها.

****

ذات صباح صيفي، استيقظت باكرا، خرجتُ متجاوزا عتبة البيت بخطوات و اقتعدت صخرة ملساء تقف إلى جنبها شجرتا أُكَاليبتُوسْ كجنديين حارسين لمدخل البيت. اقتعدتُ الصخرة في انتظار أن تظهر يزي حاملة مِحَشَّها متجهة كعادتها صوب الغابة. كنتُ مصمما على المغامرة ذلك اليوم، عزمت على تتبع المرأة ومر افقتها بحذر حتى أصل إلى الحقل الذي دأبَتْ على الذهاب إليه.

لم يَطُل مكوثي إلا لحظات حتى لمحت يزي مقبلة بسرعتها المعهودة وملامحها الغاضبة. تركتها حتى ابتعدت عني قليلا ثم قمت من مكاني وسرت وراءها بحذر شديد، كنت أخاف أن تلتفت وراءها فتراني متربصا بها فتطاردني بحجارة أو تسمعني كلاما يجرحني فأنثني بعدها عن عزيمتي. سرتُ خلفها أعُدُّ خطواتي عدا، تبعتها وقلبي يخفق في ذلك الصباح الباكر الذي تكثر فيه الاحتمالات وتتوالد فيه الخيالات في ذهني. وصلت يزي إلى حقل يقع قريبا من ساقية، اقتحمته وشرعت تحش الفصة و أنا أرقبها بعيني بعيدا خلف شجرة تين كبيرة رأيت جذعها كافيا لأنْ يخفيني وراءه.

كانت يزي تحش الفصة بطريقة جنونية، حسبتها تتلذذ بعملية حشها تلك، كانت تهوي بالمحش على رؤوس الفصة وتقطعها بتلذذ ومهارة عالية. لم ألبث إلا قليلا، حتى رأيتُ المرأة تخرج عن هدوئها وصمتها، وضعت المحش جانبا، كورت قبضتها وهوت بها في السماء عاليا وشرعت في سرد ألمها من جديد بكلماتها المعهودة، جعلت تقطع أرض الحقل ذهابا و إيابا، صرخت أشد من ذي قبل ورفعت صوتها كما لم أعهد من قبل، جرت في اتجاه الساقية، اقتحمتها، جعلت ترفع الماء بيديها وتقذف به عاليا في السماء وهي تبكي... كان المشهد حزينا، علمتُ حينها بأن هذه المرأة ضاق صدرها حد

التمزق، وزاد من ألمها أنها تخاطب الناس بغير ما تواضعوا عليه، أو على الأقل تخاطبهم بما لا يفهمون...!

تسمرت في مكاني خلف شجرة التين، ترتجف أركاني أيما رجفة، خِلت المرأة جنية في قالب آدمي، جعلت أرقب هذا العرض المسرحي والأسئلة تتقاذف في ذهني والمشاعر تتضارب في عمق فؤادي. لم يمر على حالتها تلك إلا قليل حتى غادرت الساقية و اتجهت مرة أخرى صوب الحقل، حسبتها ستعود إلى هدوئها أو يعود إليها فإذا بها تدخل فصلها الثاني من المسرحية، اتجهت صوب نخلة ممتدة في وسط الحقل، عانقتها وهي تبكي بطريقة هستيرية، تركت النخلة و اتجهت صوب كدية قريبة وصعدتها ثم جعلت تنظر في اتجاه الشمس الآخذة في الارتفاع... نظرت إليها ثم قالت (كاين الله). نزلت وهي تصرخ مرة أخرى وهي تقول: سعاد.... سيري...ولكن القايد معارفش... ونْت ابنة الزنقة أنا نْورّيك... نتوما حمير... رجّالة ديال آخر الزمان.. خلِّوْني...بعْدو مني... كاين الله... كاين الله.

****

عدت إلى بيتي محملا بأكثر من جرح، تألمت لحال هذه المرأة التي انغلق عالمها عليها، وظلت تعيش أحزانها فرْدةً. كنتُ أعلم أن في بكائها الذي ينتابها جرحا غائرا، وفي كلماتها حكاية بلون القهر، وما توقعتُه غالبا سيكون صحيحا. كنتُ أسترجع طقوسها الأسطورية التي كانت تمارسها في الحقل قبل عودتها، فتتمثل لي في الذهن امرأة قدمت إلى هذا العالم من باب الأموات، أو خرجت إلى القرية من تحت الأرض... !

صممتُ في الليلة المقبلة أن أرفع من مستوى مغامرتي، قررتُ أن أذهب إلى مكان قرب بيتها المطل على المقبرة وأحاول الجلوس على مقربة منه عساني أظفر ببعض الكلمات أو بطقس من طقوسها الغريبة توضح لي قصتها في مخيلتي وتكشف لي معاناتها كاملة، هذه المعاناة التي رأيت أهل القرية كلهم لا يعيرونها اهتماما ويكتفون برمي يزي بالحمق والجنون.

عندما انتصف الليلُ، خرجت منتعلا أملي ذاهبا في اتجاه بيت يزي، كنتُ أعلم أن هذه المغامرة ستنطوي على أمر جديد، وكنت في الوقت ذاته خائفا، لأن هذا الليل المعتم، وتواجد البيت قرب المقبرة، وحالة المرأة الغريبة، كلها أمور تثير في دواخلي الفزع. قطعت الدرب المحاذي للمسجد، تجاوزته بخطوات أحاول أن أجعلها ثابتة، عطفت عن اليمين في اتجاه الدرب الذي يفصل المقبرة عن السكان. تفاجأت كثيرا عندما اقتربتُ من بيت يزي، بدا لي مفتوحا على مصراعيه، مظلما، يشبه في هيئته فوهة كهف مخيف. خمنت أن تكون يزي قد خرجت، لم أرتح للفكرة لأنني لم أرد أن أعود إلى البيت خاوي الوفاض... أدرت وجهي في اتجاه المقابر، تقدمت في السير قليلا فإذا بي ألمح نارا بعيدة بعض الشيء موقدة قرب بئر القرية المهجور، ثبت عيني حول النار فتبدى لي شبح امرأة جزمت من خلال هيئتها أنها يزي. سُررت للأمر كثيرا، لأنني صادفتُ هذه المرأة، لأول مرة، تمارس طقسا من طقوسها المثيرة، المخيفة، الناقمة على الحياة الرديئة. حاولت أن أتقدم في اتجاه دار (حمود) حتى أقترب منها بعض الشيء، وفي الوقت ذاته أكون بعيدا عن المقابر بشكل يمكنني من رؤية يزي وهي تزاول طقوسها المتمردة على الو اقع والعقل.

لم تستقر أنفاسي في صدري إلا بعدما اخترت مكانا منزويا و اتكأت بظهري على حائط دار (حمود)، تنفستُ الصعداء، وجعلت أنظر بعدها إلى المرأة بنفس المشاعر المختلطة التي انتابتني عندما كنت أتتبعها بعيني خلف شجرة التين. صرتُ أبصرها من موقعي قريبة مني بما يمكنني من سماع كلماتها والنظر إلى تصرفاتها بشكل واضح. كانت المرأة غريبة حقا، رأيتها تخاطب قِطا كان إلى جنبها... تمرر يدها على رأسه ثم ظهره، تخيره بأن تلقيه في النار أو تأخذه بيدها وتلقي به في قاع البئر...! ولأن القط لا يفهم من طبيعة الحال ما تقول فإنه كان يقابل كلماتها بمواء مدلل بعدما رأى يدها تُرَبّت عليه، لو كان يعلم ما تتفوه به لهرب حفاظا على حياته.

استمرَّت همهمات يزي ومناجاتها للقط ما يزيد عن الربع ساعة، ظننتُ الأمر سيبقى على حاله لولا أني سمعتها تقول لأول مرة في حياتي جملة تامة مفيدة، قالت وهي تحدث القط: لا تخف أيها القط... لن أحرقك ولن أرمي بك في قاع الجب، كفاني وحدي أحترق، وكفاني لوحدي أعيش في قاع الجب... أنت تؤنس وحشتي ... أهل القرية نائمون... هو مْشى.. مْشى ... هاد نَّاس أيها القط ماشي ناس... أنا كنت صبارة... كنت بخير... ولكن معرف أشنو وقع... أشنو وقع؟ للي وقع وقع... وللي شافت عيني مفهموشي قلبي ... كاين الله... كاين الله.

لم أشعر إلا والدموع تسيل على خدي، لأول مرة ترتفع حرارتي أمام مشهد من مشاهد يزي، بكيت في سري و أنا أحرك رأسي بعدما تأكدت من صدق بعض توقعاتي و افتراضاتي...! قامت يزي بعد ذلك و اقتربت من أحد القبور وتمددت على الأرض وصاحت بأعلى صوتها: أيها الناس... راه كاين الله... دابا تعرفوه... الموت مزيانة. ثم انتصبت بعد ذلك قائمة وجعلت تصرخ بأعلى صوتها كما هي عادتها، أما القط الذي كان إلى جنبها فهرب متخللا

المقابر بعدما رأى المرأة التي كانت إلى جنبه وديعة قد صارت شبحا مخيفا يصرخ عاليا... ظلت يزي على حالها ذلك مدة من الزمن حتى أحسست بالعياء والملل، فجأة رأيتها تنصرف في هدوء صوب بيتها وهي تتوعد النائمين بالويل.

أما أنا، فتركتها حتى انصرفت وذهبتُ في اتجاه النار لأطفئها حتى لا تكون سببا في احتراق قرية بكاملها، سكانها ما بين ميت مقبور ونائم مغبون. اقتربت من النار فإذا بي أفاجأ بشيء لم يخطر ببالي قط، وجدت يزي قد كتبت على الأرض اسم (سعاد).. لستُ أدري لِمَ تدفقَتْ عيناي بالدموع مجددا، علمتُ وقتها أن هذه المرأة ليست أمية شأن أغلب نساء القرية، تأملت خطها، كان جميلا، ولولا أنني أبصرتها من بعيد وهي تخط بعصا فوق الأرض لما رجحت أن تكون هي من كتب هذا الاسم هنا....!

****

أكد لي الاسم الذي وجدته مكتوبا أن هذه المرأة لم تكن عادية تماما، ولم تكن كباقي الحمقى الذين أعرفهم. كانت تسيل حسرة وتتمزق ألما وهي واعية بحجم ذلك الألم وذلك التمزق. لقد انقطعت علاقتها بو اقعها، بالناس حولها، ولكنها لم تنس أنها معطوبة القلب مجروحة العمر، ولذلك عندما يتجدد وعيها بفداحة أمرها الكئيب وقدرها الرهيب تخرج من بيتها تخاطب الناس والفراغ وتتوعدهم بالويل والثبور... أما طقوسها التي تمارسها ما بين لحظة وأخرى، سواء في الحقل أم قرب المقابر، أم في أماكن أخرى لا أعرفها، فهي نشرات تعلن من خلالها أخبارها الداخلية ومدى النار التي مازالت تأكل الأخضر من قلبها وتلتهم ما تبقى قائما في ذاتها المتصدعة. كانت تتعرى بطقوسها أمام الو اقع تُعلن عن خيباتها الموجعة، عن فشلها

الذريع في الانسجام مع واقع ترى أهله حمقى، كما يرونها كذلك، أما الحقيقة فوحده الله يعلمها.

وجدتُني من خلال مغامراتي أقترب شيئا فشيئا من عالم هذه المرأة، أفهم شيئا من سرها المكتوم وأبصر جوانب خفية من جغرافيتها المهيبة. كنتُ أعلم بأنني لن أقدر على ردها إلى حالتها الطبيعية، فذلك من مستحيلات الحياة، ولكني كنتُ أود إسكات الفضول في دواخلي، والإجابة عن سؤال تولد منذ طفولتي وجعل يكبر معي ويتجبر. كنتُ أرغبُ في أن أشكو بثها وحزنها إلى الناس وأعلمهم من حالها ما لا يعلمون.

حاولتُ أن أكرر زيارتي لبيت يزي ليلا خاصة بعدما كشفت لي زيارتي الأخيرة أنها تعرف الكتابة، كان صدري ينبئني بأن الليل عند يزي ليس هو النهار ولذلك قد تمارس فيه ما لا تمارسه في أوقات أخرى غيره. خرجتُ وقد انتصف الليلُ، خرجتُ قاصدا بيت يزي كما فعلت قبل يومين. كانت الليلة مقمرة، وكانت السماء صافية جدا بما جعل النجوم تبدو لامعة فاتنة، ولذلك لم تكن العتمة مطبقة، كانت الأرض مغمورة بنور القمر، والفضاء مزينا بهدوء الليل.

لم أكد أقترب من بيت المرأة حتى لمحتُ شبح رجل يتسلق الحائط الطيني ثم يسير فوق السطح ليلقي بنفسه من الجهة الأخرى في وسط البيت. كان المنظر عجيبا مذهلا، لم أفهم لحظتها ما يقع، ولا علمتُ ما يجري... أي شيء يقصده هذا الرجل الذي تسور البيت وقفز إلى داخله في عمق هذا الليل..؟ أيكون شخصا شغوفا بمعرفة يزي مثلي؟ ولكن أيصل به الشغف والمغامرة إلى أن يقتحم بيتا ليس له، أن يقتحم على امرأة خلوتَها وهو لا يدري أحوالها في الداخل ولا يعلم ما تصنع ولا ما هيئتها؟

لم أخرج من أفكاري التي راودتني ساعتها إلا بعدما تناهى إلى سمعي صراخُ يزي، صراخٌ يستغيث، علمتُ حينها أن يزي تقاوم دفاعا عن شيء... صراخها هذه المرة كان مختلفا، نغمته ثائرة. تأكدتُ من خلال بعض الكلمات التي تناهت إليّ من فم الرجل أن هذا الأخير يركب هوى شهوته وتقوده وحوش نفسه. لم أدر أي شعور اعتلاني ولا أي إيقاع صار يخفق قلبي عليه في تلك اللحظة... لم أشعر إلا و أنا أهوي بقبضتيّ على باب البيت... طرقته كثيرا، صرخت... لم يطل بي الأمر كذلك حتى لمحت شبح الرجل يقفز نحو الخارج ويجري هاربا في اتجاه المقابر بعدما أزعجه الطرق و أفسد عليه مكره وألقى في قلبه رعبا بحجم جريمته التي كان سيقدم عليها. حاولت أن أتبع الرجل ولكنه كان يجري بمهارة نمر وروح كلب، تخلل المقابر ثم اختفى في الغابة المطلة على وادي زيز، ولأن المطاردة تمت بليل، فاتني القبض عليه ولم أتعرف إلا على بعض ملامحه.

عدتُ إلى بيتي والدموع تسيل على خدي المحزون، لم يبق من رصيد قوتي ما يمكنني من العودة لبيت يزي، كان المشهد الذي جرى وقتها أمام عينيّ فادحا بما تجاوز قدرة قلبي على التحمل. عُدت حزينا أحمل في قلبي أجواء مأتم، وأحمل في ذاكرتي مشهدا بشعا مثَّل فيه الإنسان دور الحيوان وزيادة. كنتُ أتساءل هل تصل الحيوانية بالإنسان إلى أن يؤذي امرأة مثل يزي؟ إلى أن يُعلن في وجهها فُحشه والذئب الذي يعوي داخله؟ هل تسمح له نفسه أن يركب هواه ويقتحم عالم امرأة تحملُ من الهم مثل ما يحمل هو بين جنبيه من شهوة عارمة جارفة؟ كيف يكون هذا مع امرأة تستدعي حالتها شفقة فوق الشفقة ورحمة فوق الرحمة. لماذا يستغل هذا الرجل حُمق امرأة ليقضي شهوةً سيسجل نفسه بها في عالم الحيوان؟ من تكون يزي؟ أليست إنسانا مثلنا رغم عوالمنا المتباعدة... رغم عيشها في عالم مغلق تتجرع فيه

المرارة بمفرها ولا من يؤنس وحشتها أو يكسر رتابة حياتها أو يفتح لها في عالمها الرمادي نافذة نور أو كوة هواء أو يزرع في حياتها بذرة أمل.

****

غادرتُ القرية سنين ثم عدتُ إليها، ولكن العجيب أن يزي كانت هي أول شخص صادفته وأنا على أبواب القرية مُقبلٌ من سفر طويل. تغيرَتْ كثيرا... لم تحتفظ إلا بحمقها ونظراتها الناقمة. أما ظهرها فتقوس يعض الشيء مؤذنا على قرب النهاية. شحب وجهها أكثر من اللازم، وشاخ جسدها أكثر من اللازم، وابيض شعرها من الهم وتعاقبِ الوقتِ. غدت مشيتها بطيئة وقد كانت من قبل تمشي فتحسب الأرض تُطوى لها طيا. أما جسدها فنحل كثيرا حتى صارت تتبدى في هيئتها كجلدة تغلف هيكلا عظميا متآكلا. وحده صراخها ظل حادا، احتفظ بشبابه وقوته، ووحدها كلماتها لم تتبدل، ظلت كما هي تتحدى سير الزمن وتسخر من واقع رديء معقوف.

لم تمض على مجيئي إلا أيام قليلة حتى بلغني أن يزي قد ماتت. تجمدت دمعتان في عتبات عيني، تخللتني برودة جارحة، وتصلبت يداي وقدماي، وشعرتُ بأن القرية قد فقدت أسطورتها. كان الخبر بوفاة يزي ساخنا إلى الحد الذي كواني وبعثر مشاعر راقدة في فؤادي وأخرج جملة معانٍ كانت في أجداثها. ماتت يزي؟ من سيصرخ بعدها؟ من سيتوعد الظالمين بالويل؟ من سيعاتب النائمين على نومهم؟ من سيعري الواقع بالأسطورة، بالطقوس العصية على الفهم؟ ماتت يزي، يجري الخبر مرة أخرى في أرجاء ذهني فأشعر بأن شيئا داخلي آخذ في التلاشي.... أشعر بأن مسرحية تراجيدية اكتملت فصولها ولم يكتمل فهمي لجميع تفاصيلها. ماتت يزي وبقيت بعض الأسئلة حية في ذهني تقتات على الصبر والمستقبل وتنتظر

أخبار الغيب.... من سيجيب عن أسئلتي؟ من سيعوض يزي؟ هل ستغادرني يزي وتخلفني وراءها عاجزا عن فهمها وإدراك أبعادها وتجلياتها...؟

حضرت مراسم دفنها، كان المشيعون قلة... جرحني الأمر كثيرا، لماذا نتخلى عن الحمقى في حياتهم ومماتهم؟ أية مسافة هاته نصنعها بيننا وبينهم؟ ومن يدرينا لعلنا نحن الحمقى لا هم!! كنتُ أرتدي لباسا بالغ السواد لأقول للناس إن هذه المرأة تحتاج أكثر من وقفة، أكثر من حزن، تحتاج عقلا جبارا يشرف على الحمق ليفهمها... كنتُ ألقي ببصري على جسدها المسجى والناس على أهبة الصلاة عليها فتحضرني صور شتى في مخيلتي... أتذكر طقوسها الغريبة، كلماتها التي تخفي وراءها عوالم من المعنى والهم والأسى والمعاناة... أتذكر لحظة تأملي مشاهد حمقها وهي في الغابة، ثم وهي قرب النار في الليل... أتذكر شبح الرجل الذي تسور بيتها عازما على أن يزيدها هما فوق همها ويضخم حجم مأساتها وظلامها... أتذكر هذه الأشياء وغيرها، فتسيل العبرات كخيط متصل على وجهي، وأتخيلها تسيل حتى على قلبي الشارد، المكلوم، الذي يبحث في الحياة عن معنى...!

حاولتُ أن أقترب من قبرها لألقي نظرة أخيرة على جسدها قبل أن يورى بالتراب ولكن صراخا وكلاما مُبعثرا لفت انتباهي. استدرتُ خلفي لأعرف مصدر الصوت وسره.... كانت المفاجأة بحجم المأساة التي كنت أشعر بها، إنه هو، هو عينه، ذلك الرجل الذي اقتحم بيتها ذات ليلة وهرب بعد طرقي المتواصل للباب.. إنه هو، هي ذي قامته، وهي ذي هيئته، وصفحة وجهه تحيي في ذاكرتي بعض الملامح التي سجلتها في تلك الليلة، ليلة المطاردة التي عدت منها خاوي الوفاض. كان يرتدي بذلة ممزقة، متسخة، أشعث أغبر، يجر حزمة من العصي والقنينات الفارغة، يرفع بصره إلى السماء في ابتسامة رديئة ويضحك ضحكات فارغة لا يحتويها سياق، ثم يشرع في الصراخ...

صراخ هستيري يستفز الآذان!! علمتُ بأن لعنة يزي قد أصابته وبأنها لم تغادر الحياة إلا بعدما صيّرته أحمق مثلها... وهل هو فعلا مثلها؟ أجزم بأنه ليس كذلك، حمقه رديء... أما يزي، فكان في حمقها النضج الرفيع، البلاغة، الرمز، وكثير من الأسطورة. يزي كانت جبلا في الهم والأسى، ولذلك يلزمك جهدٌ لترى علياءه وقمته.

****

دُفنت يزي وبقيت مشاهدها وأسئلتها حية تمشي على الأرض!! شيء واحد كان يعتصر قلبي وقد فرغنا من الدفن، وهو أنني لم أوف هذه المرأة حقها في البحث عن لغز حمقها... عن سر عزلتها... عن سر غضبها الدائم... عن سر خطابها الجارح الذي يتبدى للوهلة الأولى فارغا مبعثرا... قررتُ و أنا عائد من مراسم الدفن أن أزور بيتها الذي لم تعد فيه... تمنيتُ في خاطري أن أدخله... فإذا كان قد فاتني العلُم المحيط بيزي، هذه الظاهرة التي سجلتْ اسمها في تاريخ القرية بالرماد والحديد، فعلى الأقل لا داعي لأن يفوتني العلم ببيتها الذي قضت فيه عمرها... بيتها الطيني البسيط المطل على المقبرة منذ سنوات، وكأنما يتطلع إلى الموت... أو يخاطب الموتى بعدما عجز الأحياء عن الفهم والتجاوب مع قصتها التي لم تلق أذنا مصغية.

تقدمتُ نحو بيتها بخطوات مرتعشة... كان الباب مفتوحا كما توقعت، فبيوت الحمقى مفتوحة في وجه الجميع! تجاوزتْ رجلي عتبةَ البيت لأول مرة... كانت الرو ائح كريهة جدا إلى مدى صرت أشعر فيه بالغثيان... لم أنثن رغم ذلك عن قراري... قطعت سقيفة مسقوفة بالقصب والجريد، تتدلى منها العناكبُ هنا وهناك... انتهت بي السقيفة إلى ما يشبه الفِناء، علمت بأنه المكان الذي نزل به الرجل الخائن الذي انتهت به الأقدار أحمق يوزع صداعه أقساطا في الشوارع... توجهتُ صوب غرفة عن اليمين، وهنا كانت المأساة

بعينها... لأول مرة أرى المأساة...ظننتها من قبل أمرا معنويا مجردا.. ولكنها في بيت يزي تشخصت لي أو هكذا توهمت... كانت الغرفة ملطخة بالحناء في جميع جوانبها.. مسامير مدقوقة هنا وهناك... رماد متطاير في كل جانب.. تقدمت في عمق الغرفة، لفتت انتباهي دمى جميلة نقية وسط عالم تعمه الفوضى والنجاسة... كانت الدمى جميلة بشكل ملفت، وإلى جانب الدمى تتدلى أقمشة بألوان تحزن الناظرين، وقرب الأقمشة ثياب طفلة ملفوفة في كيس بلاستيكي مهترئ... أما الجدران، فقد كانت مخيفة تماما بما تحتويه من رسومات مفزعة، وجوه متقاطعة، وأخرى باكية... في الجهة اليسرى للغرفة صورة قديمة لرجل أربعيني دُقت فيها المسامير دقا وكتب عليها (الخائن) ... وفي أرضية الغرفة حُفر اسم (سعاد) أكثر من مرة، بالخط ذاته الذي وجدته قرب النار في تلك الليلة التي جعلت أنتظر الفتح المبين...!

تقدمت نحو الغرفة الأخرى المقابلة للأولى، علمتُ بأنها الغرفة التي كانت تنام فيها يزي... كان هناك سرير مركون في الجانب الأيسر، مشقوق، مهترئ، يصور صروف الدهر بامتياز. كانت الغرفة محاطة الجدران بشمع قديم ورسومات ملتوية متداخلة. اقتربت من السرير فلفت انتباهي اسم سعاد مطرّز هذه المرة فوق الوسادة... تلمست الوسادة بيدي المرتعشة، فأثار انتباهي احتواء الوسادة على شيء ظننته ورقا... أسرعت في تمزيق الوسادة لأنني رجحت أن تحتوي هذه الوسادة على بعض المكتوبات... أخذت سكينا كان ملقى على الأرض، مزقت الوسادة، وشرعت في إخراج ما تحتويه.. أخرجت ورقا مصفر اللون لطول ما تراكم فوقه من زمان، وفي وسط كومة الورق عثرت على ورقة مطوية بطريقة ملفتة، فتحتها وهالني ما رأيتُ... لم أتصور قط أن أعثر على جواب لسؤال نشأ معي وترعرع.. لم أتصور أن أكتشف ما وراء يزي من خبر...

كانت الكلمات باكية شاكية..(لقد خانني في فراشي أمام ناظري في عمق الدار...خانني مئات المرات وأسكت شكواي بالضرب والتعنيف...اختطف مني ابنتي سعاد التي أنجبتها منه وذهب ولم يعد...كاين الله كاين الله...القايد معرف والو، أوحَدٌّ مداها فيّا... الرجال ديال آخر الزمان.... هادشي كيحمق...).

كانت الكلمات كافية لأن تزلزل كياني، لأن تشل فيّ مواطن الحركة وتجعلني كعامود مدقوق في الأرض. علمت أنها كلمات كتبتها المرأة قبل أن تدخل سجل الحمقى. أذكر أنني لم أبك كما بكيتُ ذلك اليوم، بكيتُ كثيرا حتى خفتُ أن تتلبسني حالة يزي، أو يحل بي شيء من كآبتها. انكشفت لي حينها ألغاز كانت معلقة، علمت الآن سر قولتها (كاين الله)، وعلمت سر اسم (سعاد)، وعلمت لماذا تكره الرجال وتتوعد رجلا مجهولا بالويل والثبور...علمت بأن الألم الذي حل بها وهي ترى الخيانة مجسدة أمامها في عقر دارها فوق فراشها هي التي ذهبت بعقلها، و أفقدتها توازنها النفسي وألبستها مأساة طويلة الأمد ...علمتُ بأن فلذة كبدها التي اختُطفت منها هي التي حفرت أخاديد في قلبها وتركتها على امتداد ما تبقى من حياتها تنزف غيظا، وحسرة، وألما. علمتُ سر وجوه النساء المتقاطعة والمرسومة فوق الجدران... سر الدمى الجميلة... سر صورة الرجل المذيلة بكلمة (الخائن)...سر الرماد وسر الفوضى التي طبعت البيت.

خرجتُ من البيت الأسطورة شارد الذهن غائبه، بالكاد اصطحبت تركيزي معي و أنا أتجاوز العتبة في اتجاه الخارج... أتذكر يزي، وأستحضر الكلمات المكتوبة على الورقة فيهتز صدري وأشرع من جديد في بكائي الصامت. صارت يزي بالنسبة لي ظاهرة مأساوية تلخص جزءا من المجتمع في شقه المعتم، الباكي، الذي يُولى بالظهر. أذكر أنني كنت أتجاوز الدرب القريب

من المقابر في اتجاه بيتي والهلوسات تتكاثر في ذهني، والخيالات تغطي الفضاء أمام عيني...كنتُ أسير والأرض تمور تحت قدمي... الحقيقة دائما تكون قاسية عندما تكشف عن وجهها، مُرة عندما تُتَذوَّق... كنت أسير والإعياء يتسرب إلى مفاصلي والصداع يكتسح جمجمتي.. تناهى إلى أذني صوت يزي أو هكذا خُيِّل إليَّ، استدرت فإذا بي ألمحها قد أخرجت يدها من قبرها ومدت سبابتها في اتجاه السماء وهي تقول كما عهدتها (كاين الله).

١٣ أبريل ٢٠١٧م
القصر الكبير- خنيفرة

الفهرس

اختفاء أخضر	٩
حب عاصف	٣٣
مدرس في الخريف	٧٥
زواج معلق	٨٧
يَزِّي	١١١

سيرة الكاتب:

الاسم الكامل: رضا تنافعت

تاريخ الازدياد ومكانه: ١٩٨٩ بمدينة الرشيدية، جنوب شرق المغرب

المسار العلمي: - حاصل على شهادة التبريز في اللغة العربية ٢٠١٣م

-حاصل على شهادة الماستر في الأدب العربي سنة ٢٠١٧م ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط/المغرب

-حاصل على شهادة استكمال الدراسة بالأقسام التحضيرية، شعبة الآداب والعلوم الإنسانية، بمكناس، سنة ٢٠٠٩م

-حاصل على شهادة البكالوريا، شعبة الآداب والعلوم الإنسانية سنة ٢٠٠٧م

- أستاذ مادة اللغة العربية بالسلك الثانوي التأهيلي/المغرب

الإصدارات:

-صدر له بمطبعة سليكي أخوين بطنجة/المغرب (أشجان الروح) سنة ٢٠١٦

- صدر له عن مطبعة سليكي أخوين بطنجة/المغرب (حب في العتمة) سنة ٢٠١٧م

للتواصل:

- https://www.facebook.com/profile.php?id=100021645620341
- البريد الإلكتروني: mohiy-addin@hotmail.com

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

- نشر كل إنتاج إبداعي ذي جودة عالية و أفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة. والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.

لمراسلتنا بشأن نشر الأعمال الأدبية

Gmail arabiclibrary2017@gmail.com

صفحتنا على موقع الفيسبوك

facebook facebook.com/arabiclibrary2017